# تفسير

# الشعراوي




أخبار اليوم

قطاع الثقافة

لذلك ، فالحق سبحانه وتعالى حينما عالج هذه المسألة عالجها برصيد احتياطي في القرآن ، يقول سبحانه : ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ (٣٦)﴾ [يس]

فقوله سبحانه : ﴿وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ (٣٦)﴾ [يس] رصيد عال لما سيأتي به العلم من اكتشافات تثبت صدق القرآن على مرِّ الأيام ، ففي الماضي عرفنا الكهرباء ، وأنها سالب وموجب فقلنا : هذه مما لا نعلم ، وفي الماضي القريب عرفنا الذرة فقلنا : هذه مما لا نعلم ، وهذا وجه من وجوه الإعجاز في القرآن الكريم .

إذن : خُذْها قضية عامة : كل شيء يتكاثر إلى أعلى منه ، فلا بُدَّ أن فيه زوجية .

فقوله تعالى : ﴿وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٥)﴾ [الحج] فالزوج من النبات مفرد معه مثله ، وهذا واضح في لقاح الذكر والأنثى ، هذا اللقاح قد يكون في الذكر وحده ، أو في الأنثى وحدها كما في النخل مثلاً ، وقد يكون العنصران معاً في النبات الواحد كما في سنبلة القمح أو في كوز الذرة .

ولو تأملت نبات الذرة لوجدتَ له في أعلاه ( شوشة ) بها حبيبات دقيقة تحمل لقاح الذكورة ، وفي منتصف العود يخرج الكوز ، وبه شعيرات تصل كل شعرة منها إلى حبة من حبات الذرة المصطفة على الكوز ، وهذه تحمل لقاح الأنوثة ، فإذا هبَّتْ الريح هزَّتْ أعلى العود فتساقطت لقاحات الذكورة على هذه الشعيرات فلقحتها ؛ لذلك نرى الحبة التي لا يخرج منها شعرة إلى خارج الغلاف تضمر وتموت ؛ لأنها لم تأخذ حظها من اللقاح .

ومعنى : ﴿بَهِيجٍ (٥)﴾ [الحج] من البهجة ، فالمراد : الشيء حسن المنظر والجميل الذي يجذب الأنظار إليه ، وبهجة النظر إلى

النبات شائعة لا تقتصر على مَنْ يملكه بخلاف الأكل منه ، فحين تمر ببستان أو حديقة تتمتع بمنظرها وجمال ألوانها وتُسَرُّ برائحتها .

وفى النفس الإنسانية ملكات تتغذى على هذه الخضرة ، وعلى هذه الألوان وتنبسط لهذا الجمال ، ولو لم تكُنْ تمتلكه .

لذلك الحق ـ سبحانه وتعالى ـ ينبهنا إلى هذه المسألة فى قوله تعالى : ﴿انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ[1] .. (٩٩)﴾ [الأنعام] أى : أن النظر مشاع للجميع ، ثم بعد ذلك اتركوا الخصوصيات لأصحابها ، تمتَّعوا بما خلق الله ، ففى النفس ملكات أخرى غير الطعام .

واقرأ أيضاً قوله تعالى فى الخيل : ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ (٦)﴾ [النحل] فليست الخيل لحمل الأثقال وفقط ، وإنما فيها جمال وأبَّهة ، تُرضِى شيئاً فى نفوسكم ، وتُشْبِع ملكَة من ملكاتها .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٦)﴾

أى : أن ما حدث فى خَلْق الإنسان تكويناً ، وما حدث فى إنبات الزرع تكويناً ونماءً ، يردُّ هذا كله إلى أن الله تعالى ﴿هُوَ الْحَقُّ .. (٦)﴾ [الحج] فلماذا أتى بالحق ولم يقُلْ الخالق ؟ قالوا : لأن الخالق قد يخلق شيئاً ثم يتخلى عنه ، أمّا الله ـ سبحانه وتعالى ـ فهو الخالق الحق ، ومعنى الحق أى : الثابت الذى لا يتغير ، كذلك عطاؤه لا يتغير ، فسوف يظل سبحانه خالقاً يعطيك كل يوم ؛ لأن عطاءه سبحانه دائم لا ينفد .

---

(١) ينع الثمر : أدرك ونضج ، واليَنْع : النضج . واليانع : الناضج . [ لسان العرب ـ مادة : ينع ] .

وإذا نظرتَ إلى الوجود كله لوجدته دورة مكررة ، فالله عز وجل قد خلق الأرض وقدَّر فيها أقواتها ، فمثلاً كمية الماء التى خلقها الله فى الكون هى هى لم تَزِدْ ولم تنقص ؛ لأن للماء دورة فى الحياة ، فالماء الذى تشربه طوالَ حياتك لا يُنقص فى كمية الماء الموجودة ؛ لأنه سيخرج منك على صورة فضلات ليعود فى دورة الماء فى الكون من جديد .

وهكذا فى الطعام الذى نأكله ، وفى الوردة الجميلة الطرية التى نقطفها ، كل ما فى الوجود له دورة يدور فيها ، وهذا معنى : ﴿ وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا .. ⟨١٠⟩ ﴾ [فصلت]

فمعنى : ﴿ الْحَقُّ .. ⟨٦⟩ ﴾ [الحج] هنا الثابت الذى لا يتغير فى الخَلْق وفى العطاء . فلا تظن أن عطاء الله لك شىء جديد ، إنما هو عطاء قديم يتكرر لك ولغيرك .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ .. ⟨٦⟩ ﴾ [الحج] كما قُلْنا فى الآية السابقة : ﴿ وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً .. ⟨٥⟩ ﴾ [الحج] أى : ساكنة لا حياةَ فيها ، والله وحده القادر على إحيائها ؛ لذلك نجد علماء الفقه يُسمُّون الأرض التى نصلحها للزراعة ( إحياء الموات )[1] فالله تعالى

(١) إحياء الموات معناه : إعداد الأرض الميتة التى لم يسبق تعميرها وتهيئتها وجعلها صالحة للانتفاع بها فى السكنى والزرع ونحو ذلك . ويشترط لاعتبار الأرض مواتاً أن تكون بعيدة عن العمران ، حتى لا تكون مرفقاً من مرافقه ، ولا يتوقع أن تكون من مرافقه ، ويرجع إلى العرف فى معرفة مدى البعد عن العمران . واتفق الفقهاء على أن الإحياء سبب للملكية لحديث رسول الله ﷺ : « من أحيا أرضاً ميتة فهى له » . واختلفوا فى اشتراط إذن الحاكم فى الإحياء فأكثر العلماء على عدم اشتراط إذن الحاكم . وذهب أبو حنيفة إلى اشتراط إذن الإمام وإقراره ، وفرَّق مالك بين الأراضى المجاورة للعمران والأراضى البعيدة عنه . ويجوز للحاكم العادل أن يُقطع بعض الأفراد من الأرض الميتة والمعادن والمياه ما دامت هناك مصلحة ، فإذا لم تتحقق المصلحة بأن لم يعمرها من أقطع له ولم يستثمرها فإنها تنزع منه » [ فقه السنة ـ الشيخ سيد سابق ٣/٢٠١ ـ ٢٠٤ بتصرف ] .

هو القادر وحده على إحياء كل ميت ؛ لذلك يقول بعدها : ﴿وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ⑥﴾ [الحج]

وما دام الأمر كذلك وما دُمْتم تشاهدون آية إحياء الموات فى الأرض الميتة فلا تنكروا البعث وإعادتكم بعد الموت . فيقول تعالى :

﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ⑦﴾

وقد سبق أن أنكروا البعث بعد الموت وقالوا : ﴿أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ⑯ أَوَ آبَاؤُنَا الأَوَّلُونَ ⑰﴾ [الصافات]

فيردُّ عليهم الحق سبحانه : نعم ، سنعيدكم بعد الموت ، والذى خلقكم من لا شيءَ قادرٌ على إعادتكم من باب أَوْلَى ؛ لذلك يقول تعالى : ﴿وَهُوَ الَّذِى يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ .. ㉗﴾ [الروم] والحق سبحانه هنا يخاطبنا على قَدْر عقولنا ؛ لأننا نفهم أن الخَلْق من موجود أهون من الخَلْق من عدم ، أما بالنسبة للخالق - عز وجل - فليس هناك سَهْل وأسهل ، ولا هَيِّن وأهْون .

فقوله تعالى : ﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لاَّ رَيْبَ فِيهَا .. ⑦﴾ [الحج] كأن عملية إحياء الموتى ليست مُنْتَهى قدرة الله ، إنما فى قدرته تعالى كثير من الآيات والعجائب ، ومعنى : ﴿لاَّ رَيْبَ فِيهَا .. ⑦﴾ [الحج] أى : لا شكَّ فيها . والساعة : أى زمن القيامة وموعدها ، لكن القيامة ستكون للحساب وللفَصْل بين الناس ، فلا بُدَّ من بَعْثهم من القبور ؛ لذلك يقول بعدها : ﴿وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى الْقُبُورِ ⑦﴾ [الحج]

فكُلُّ ما تقـدَّم ناشىء من أنه سبـحانه هو الحق ؛ ولأنه سبـحانه الحق ، فهو يُحـيى الموتى ، وهو على كل شىء قدير ، والسـاعة آتية لا رَيْبَ فيها ، وهو سبحانه يبعث مَنْ فى القبور .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾ ﴾

تكلمنا فى أول السورة عن الجدل بالعلم والموعظة الحسنة وقلنا : العلم إما علـم بَدْهى أو علم استدلالى عـقلىّ ، أو علم بالوحى من الله سـبحـانه ، أما هـؤلاء الذين يجادلون فى الله بـغيـر علم بدهى ﴿وَلا هُدًى.. ﴿٨﴾﴾ [الحج] يعنى : علـم اسـتـدلالى عـقلى ، ﴿وَلا كِـتَـابٍ مُّنِيرٍ﴿٨﴾﴾ [الحج] يعنى : وحى من الله ، فـهؤلاء أهل سفـسطة وجدل عقـيم لا فائـدة منه ، وعلى العاقل حـين يصادف مـثل هذا النوع من الجدال أن لا يجـاريه فى سفـسطته ؛ لأنه لن يصل مـعه إلى مفـيد ، إنما عليه أنْ ينقله إلى مجال لا يحتمل السفسطة .

ولنا فى هذه المسألة مثَلٌ وقُدْوة بسيدنا إبراهيم ـ عليه السلام ـ حينمـا جادل النمـرود ، اقرأ قـول الله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِى حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِى رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّىَ الَّذِى يُحْيِى وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِى وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِى بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِى كَفَرَ .. ﴿٢٥٨﴾﴾ [البقرة]

لقـد اتـبع النمـرودُ أسلوب الـسَّـفْـسَطة حـين قـال ﴿أَنَا أُحْـيِى

وأُميتُ..(٢٥٨)﴾ [البقرة] لأنه مـا فعل حـقيـقةَ المـوت ، ولا حقـيقـة الحياة[1] ، فأراد إبراهيم أن يُلجئه إلى مجـال لا سفسطة فيه ؛ لينهى هذا الموقف ويسدّ على خَصْمه باب اللدد والتهريج ، فقال : ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ .. (٢٥٨)﴾ [البقرة] وكانت النتيجـة أنْ حَارَ عدو الله جواباً ﴿فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ .. (٢٥٨)﴾ [البقرة] أى : دُهش وتحيَّر .

﴿ثَانِيَ عِطْفِهِۦ[2] لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ لَهُۥ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ (٩)﴾

﴿ثَانِيَ .. (٩)﴾ [الحج] ثَنَى الشيء يعنى : لَواه ، وعِطْفُـه : يعنى جَنْبـه ، والإنسـان فى تكوينه العـام له رأس ورقـبـة وكتـفـان ، وله جانبان وظَهْر ، وهذه الأعضاء تُـؤدِّى دَوْراً فى حياته وحركته ، وتدلّ على تصرفاته ، فالذى يجادل فى الله عن غير علم ولا هدى ولا كتاب منير يَثْنـى عنك جانبه ، ويلْوى رأسـه ؛ لأن الكلام لا يعجـبه ؛ ليس لأن كلامك باطل ، إنمـا لا يعجبه لأنه أفلس وليست لديـه الحجة التى يواجهك بها ، فلا يملك إلا هذه الحركة .

---

(١) وذلك أن النمرود قال : « إنى أُوتى بالرجلين قد استحقا القتل فآمر بقتل أحدهما فيقتل ، وآمر بالعفو عن الآخر فلا يقتل » قاله قتادة ومحمد بن إسحاق والسدى وغير واحد . أورده ابن كثير فى تفسيره ( ٣١٣/١ ) . ثم قال ابن كثير : « والظاهر والله أعلم أنه ما أراد هذا لأنه ليس جواباً لما قال إبراهيم ولا فى معناه ، لأنه مانع لوجود الصانع ، وإنما أراد أن يدعى لنفسه هذا المقام عناداً ومكابرة ويوهم أنه فاعل لذلك وأنه هو الذى يحيى ويميت » .

(٢) العطف : الجانب . عطفَا الإنسان : جانباه . ويقال : ثنى عطفه : أى : أعرض وابتعد بجانبه . وقوله : ﴿ثَانِيَ عِطْفِهِ .. (٩)﴾ [الحج] . كناية عن الإعراض كبراً وغروراً . [ القاموس القويم ٢٥/٢ ] .

لذلك يُسمَّى هذا الجدل « مراءً » ، ومنه قوله تعالى : ﴿أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾﴾ [النجم] يعنى : أتجادلون رسول الله فى أمر رآه ؟ والمراء : هو الجَدل العنيف ، مأخوذ من ( مَرْى[1] الضرع ) يعنى : حلْب ما فيه من لبن إلى آخر قطرة فيه ، وأهل الريف يقولون عن هذه العملية ( قرقر البقرة ) يعنى : أخذ كل لبنها ولم يَبْقَ فى ضرعها شىء .

كذلك المجادل بالباطل ، أو المجادل بلا علم ولا حجة تراه يكابر ليأخذ آخر ما عند خَصْمه ، ولو كان عنده علم وحجة لأنهَى الموقف دون لجج أو مكابرة .

والقرآن الكريم يعطينا صورة لهذا الجدل والإعراض عن الحق ، فيقول سبحانه : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾﴾ [المنافقون]

والقرآن يعطينا التدرج الطبيعى للإعراض عن الحق الذى يبدأ بلَىِّ الرأس ، ثم الجانب ، ثم يعطيك دُبُره وعَرْض أكتافه ، هذه كلها ملاحظ للفرار من الجدل ، حين لا يقوى على الإقناع .

ثم يقول سبحانه : ﴿ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ .. ﴿٩﴾﴾ [الحج] هذه علَّة ثَنْى جانبه ، لأنه يريد أنْ يُضل مَن اهتدى ، فلو وقف يستمع لخَصْمه وما يلقيه من حجج ودلائل لانهزم ولم يتمكّن من إضلال الناس ؛ لذلك يَثْنى عطْفه هَرَباً من هذا الموقف الذى لا يَقْدر على مواجهته والتصدى له .

فما جزاء هذا الصنف ؟ يقول تعالى : ﴿لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ ..﴿٩﴾﴾ [الحج] والخزْى : الهوان والذِّلَّة ، هذا جزاء الدنيا قبل جزاء الآخرة ،

---

(١) المَرْى : مَسْح ضرع الناقة لتدر . وناقة مَرِىٌّ : غزيرة اللبن . [ لسان العرب - مادة : مرى ] .

ألم يحدث للكفار هذا الخزى يوم بدر ؟ ألم يُمسك رسول الله ﷺ بقضيب فى يده قبل المعركة ويشير به : « هذا مصرع فلان ، وهذا مصرع فلان »[1] ويسمى صناديد الكفر ورؤوس الضلال فى قريش ؟ وبعد انتهاء المعركة كان الأمر كما أخبر رسول الله ﷺ ، وصُرِع كلُّ هؤلاء الصناديد فى نفس الأماكن التى أشار إليها رسول الله .

ولما قُتِل فى هذه المعركة أبو جهل عَلاَهُ سيدنا عبد الله بن مسعود ، سبحان الله ، عبد الله بن مسعود راعى الغنم يعتلى ظهر سيد قريش ، عندها قال أبو جهل - وكان فيه رَمَق حياة : لقد ارتقيتَ مُرْتقىً صَعْباً يا رُوَيْعىَ الغنم[2] ، يعنى : ركبتنى يا ابن الإيه !! فأىُّ خِزْى بعد هذا ؟!

وأبو سفيان بعد أن شفع له العباس رضى الله عنه عند رسول الله ﷺ ، ورأى موكب النبى يوم الفتح ، وحوله رايات الأنصار فى موكب رهيب مهيب ، لم يملك نفسه ولم يستطع أنْ يُخفى ما فى صدره ، فقال للعباس رضى الله عنه : لقد أصبح مُلْك ابن أخيك قوياً ، فقال له : إنها النبوة يا أبا سفيان[3] يعنى : المسألة ليست مُلْكاً ، إنما هى النبوة المؤيَّدة من الله .

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٧٧٩) من حديث أنس - رضى الله عنه - وأحمد فى مسنده ( ٢١٩/٣ ، ٢٥٨ ) أن رسول الله ﷺ قال : « هذا مصرع فلان » ويضع يده على الأرض هاهنا وهاهنا ، قال : فما ماط أحدهم عن موضع يد رسول الله ﷺ .

(٢) قال عبد الله بن مسعود : وجدته بآخر رمق فعرفته ، فوضعت رجْلى على عنقه . فقال له أبو جهل : لقد ارتقيت مُرْتقى صعباً يا رُوَيْعى الغنم . قال : ثم احتززت رأسه ثم جئت به رسول الله ﷺ ، فقلت : يا رسول الله . هذا رأس عدو الله أبى جهل » أورده ابن هشام فى السيرة النبوية ( ٦٣٦/٢ ) .

(٣) ذكره ابن هشام فى السيرة النبوية ( ٤٠٤/٤ ) : « قال أبو سفيان : سبحان الله يا عباس ، من هؤلاء ؟ قال : قلت : هذا رسول الله ﷺ فى المهاجرين والأنصار . قال : ما لأحد بهؤلاء قبَل ولا طاقة ، والله يا أبا الفضل ، لقد أصبح مُلْك ابن أخيك الغداة عظيماً . قال : قلت : يا أبا سفيان ، إنها النبوة . قال : فنعم إذن » .

وسيدنا أبو بكر ـ رضى الله عنه ـ حينما استأذن عليه القوم فى الدخول ، فأذنَ للسابقين إلى الإسلام من العبيد والموالى ، وترك بعض صناديد قريش على الباب ، ( فورمَتْ ) أنوفهم من هذا الأمر واغتاظوا ، وكان فيهم أبو سيدنا أبى بكر فقال له : أتأذن لهؤلاء وتتركنا ؟ فقال له : إنه الإسلام الذى قدَّمهم عليكم . وقد شاهد عمر هذا الموقف فقال لهم : ما لكم ورِمَتْ[1] أنوفكم ؟ وما بالكم إذا أُذِن لهم على ربهم وتأخرتم أنتم .

فالغضب الحقيقى سيكون فى الآخرة حين يُنَادى بهؤلاء إلى الجنة ، وتتأخرون أنتم فى هَوْل الموقف .

واقرأ قوله تعالى : ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ⑩ أُوْلَـٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ⑪﴾ [الواقعة]

ثم يقول تعالى : ﴿وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ ⑨﴾ [الحج] فهذا الخزْىُ الذى رأوْه فى الدنيا لن يُفلتهم من خزْى وعذاب الآخرة ، ومعنى ﴿عَذَابَ الْحَرِيقِ ⑨﴾ [الحج] الحريق : هو الذى يحرق غيره من شدَّته ، كالنار التى أوقدوها لإبراهيم ـ عليه السلام ـ وكانت تشوى الطير الذى يمرُّ بها فى السماء فيقع مشوياً[2] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ⑩﴾

---

(١) ورم أنفه . أى : غضب . أى : امتلا وانتفخ من ذلك غضباً ، وخَصَّ الأنف بالذكر لأنه موضع الأنفة والكبر . وورَّم فلان بأنفه توريماً : إذا شمخ بأنفه وتجبَّر . [ لسان العرب ـ مادة : ورم ] .

(٢) قال ابن إسحاق : جمعوا الحطب شهراً ثم أوقدوها ، واشتعلت واشتدت حتى أن كان الطائر ليمر بجنباتها فيحترق من شدة وهجها . [ ذكره القرطبى فى تفسيره (٦/٤٤٨١)] .

﴿ذَٰلِكَ .. ﴿١٠﴾﴾ [الحج] يعنى خِزْى الدنيا وعذاب الحريق فى الآخرة بما قدَّمتْ ، وبما اقترفت يداك ، لا ظُلْماً منّا ولا اعتداء ، فأنت الذى ظلمتَ نفسك ، كما قال سبحانه : ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾﴾ [النحل]

وهل أخذناهم دون إنذار ، ودون أن نُجرِّم هذا الفعل ؟ لأنك لا تعاقب شخصاً على ذنب إلا إذا كنتَ قد نبَّهته إليه ، وعرَّفته بعقوبته ، فإنْ عاقبته دون علمه بأن هذا ذنب وهذه جريمة فقد ظلمتَه ؛ لذلك فأهل القانون يقولون : لا عقوبةَ إلا بتجريم ، ولا تجريمَ إلا بنصٍّ .

وقد جاءكم النص الذى يُبيِّن لكم ويُجرِّم هذا الفعل ، وقد أبلغتْكم الرسل ، وسبق إليكم الإنذار ، كما فى قوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً ﴿١٥﴾﴾ [الإسراء]

﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ .. ﴿١٠﴾﴾ [الحج] فهل الذنوب كلها تقديمُ اليد فقط ؟

الذنوب : إما أقوال ، وإما أفعال ، وإما عمل من أعمال القلب ، كالحقد مثلاً أو النفاق .. إلخ لكن فى الغالب ما تُزَاول الذنوب بالأيدى[1] .

ثم يقول تعالى : ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٠﴾﴾ [الحج] ظلاَّم : صيغة مبالغة من الظلم ، تقول : ظالم . فإنْ أردتَ المبالغة تقول : ظلاَّم ، كما تقول : فلان آكل وفلان أكُول ، فالفعل واحد ، لكن ما ينشأ عنه مختلف ، والمبالغة فى الفعل قد تكون فى الفعل نفسه أو فى تكراره ، فمثلاً قد تأكل فى الوجبة الواحدة رغيفاً واحداً ، وقد

(١) قال القرطبى فى تفسيره ( ٤٥٤٨/٦ ) : « عبر باليد عن الجملة ؛ لأن اليد التى تفعل وتبطش للجملة » .

تأكل خمسة أرغفة هذه مبالغة فى الوجبة الواحدة ، فأنت تأكل ثلاث وجبات ، لكن تبالغ فى الوجبة الواحدة ، وقد تكون المبالغة فى عدد الوجبات فتأكل فى الوجبة رغيفاً واحداً ، لكن تأكل خمس وجبات بدلاً من ثلاث . فهذه مبالغة بتكرار الحدث .

وصيغة المبالغة لها معنى فى الإثبات ولها معنى فى النفى : إذا قُلْتَ : فلان أكول وأثبتَّ له المبالغة فقد أثبتَّ له أصل الفعل من باب أَوْلَى فهو آكل ، وإذا نفيتَ المبالغة فنَفْى المبالغة لا ينفى الأصل ، تقول : فلان ليس أكولاً ، فهذا لا ينفى أنه آكل .

فإذا طبَّقنا هذه القاعدة على قوله تعالى : ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ①⓪﴾ [الحج] فهذا يعنى أنه سبحانه وتعالى ( ظالم ) حاشا لله ، وهنا نقول : هناك آيات أخرى تنفى الفعل ، كما فى قوله تعالى : ﴿وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ④⑨﴾ [الكهف] وقوله تعالى : ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ ⑦⑥﴾ [الزخرف]

كما أن صيغة المبالغة هنا جاءت مضافة للعبيد ، فعلى فرض المبالغة تكون مبالغة فى تكرار الحدث ﴿بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ①⓪﴾ [الحج] ظلم هذا ، وظلم هذا ، وظلم هذا ، فالمظلوم عبيد ، وليس عبداً واحداً .

والظلم فى حقيقته أن يأخذ القوىُّ حَقَّ الضعيف ، ويكون الظلم على قَدْر قوة الظالم وقدرته ، وعلى هذا إنْ جاء الظلم من الله تعالى وعلى قَدْر قوته وقدرته فلا شكَّ أنه سيكون ظُلْماً شديداً لا يتحمله أحد ، فلا نقول - إذن - ظالم بل ظلام ، وهكذا يتمشى المعنى مع صيغة المبالغة .

فالحق سبحانه ليس بظلام للعبيد ؛ لأنه بيَّن الحلال والحرام ، وبيَّن الجريمة ووضع لها العقوبة ، وقد بلَّغَتْ الرسل من بداية الأمر فلا حُجَّةَ لأحد .

ثم يقول الحق سبحانه[1] :

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿١١﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ .. ﴿١١﴾ ﴾ [الحج] العبادة : أنْ تطيع الله فيما أمر فتنفذه ، وتطيعه فيما نهى فتجتنبه ، بعض الناس يعبد الله هذه العبادة طالما هو في خير دائم وسرور مستمر ، فإذا أصابه شرٌّ أو وقع به مكروه ينقلب على وجهه ﴿ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ .. ﴿١١﴾ ﴾ [الحج]

والحق سبحانه يريد من عبده أنْ يُقبل على عبادته في ثبات إيمان ، لا تزعزعه الأحداث ، ولا تهز إيمانه فيتراجع ، ربك يريدك عبداً له في الخير وفي الشر ، في السراء وفي الضراء ، فكلاهما فتنة واختبار ، وما آمنتَ بالله إلا لأنك علمتَ أنه إله حكيم عادل

---

(١) سبب النزول : روى فيها عدة روايات ، منها :

– عن ابن عباس قال : كان ناس من الأعراب يأتون النبي ﷺ فيسلمون فإذا رجعوا إلى بلادهم ، فإن وجدوا عام غيث وعام خصب وعام ولاد حسن قالوا : إن ديننا هذا لصالح فتمسكوا به ، وإن وجدوا عام جدوبة وعام ولاد سوء وعام قحط قالوا : ما في ديننا هذا خير ، فأنزل الله على نبيه ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ .. ﴿١١﴾ ﴾ [الحج] . أورده ابن كثير في تفسيره ( ٢٠٩/٣ ) ، والواحدي في أسباب النزول ( ص ١٧٥ ) .

– عن أبي سعيد الخدري قال : أسلم رجل من اليهود فذهب بصره وماله وولده وتشاءم بالإسلام ، فأتى النبي ﷺ فقال : أقلني فقال : إن الإسلام لا يقال ، فقال : إني لم أصب في ديني هذا خيراً ، أذهب بصري ومالي وولدي ، فقال : يا يهودي إن الإسلام يسبك الرجال كما تسبك النار خبث الحديد والفضة والذهب ، قال : ونزلت : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ .. ﴿١١﴾ ﴾ [الحج] .

قادر ، ولا بد أنْ تـأخذ ما يجـرى عليك من أحـداث الحيـاة فى ضوء هذه الصفات .

فـإنْ أثقلتْـك الحـيـاة فـاعلم أن وراء هذه حكمـــة إنْ لم تكن لك فلأولادك من بعـدك ، فلعلهم إنْ وجدوك فى سعـة وفى خير طَمـعُوا وفســدوا وطَغَوْا ، ولعل حـياة الضيـق وقلَّة الرزق وتعبك لتـوفر لهم متطلبات الحياة يكون دافعاً لهم .

واقــرأ قـــوله تعـــالى : ﴿ كَـــلاَّ إِنَّ الإِنسَـــانَ لَيَطْغَىٰ ۝٦ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ۝٧ ﴾ [العلق] وقوله تعالى : ﴿ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ۝٣٥ ﴾ [الأنبياء]

لا بُدَّ أنْ تعـرف هذه الحـقـائق ، وأنْ تؤمن بحكمـة ربك فى كل مـا يُجريه عليك ، سـواء أكان نعـيمـاً أو بُؤْساً ، فـإنْ أصابك مـرض أقـعدك فى بـيتك فَقُلْ : مـاذا حدث خـارج البـيت ، أبعـدنى الله عنه وعافانى منه ؟ فلعل الخير فيما تظنه شراً ، كما قال تعالى : ﴿ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ .. ۝٢١٦ ﴾ [البقرة]

وقد أجرى علماء الإحصاء إحـصاءات على بعض بيوتنا ، فوجدوا الإخوة فى البيت الواحد ، وفى ظروف بيـئية واحدة وأب واحد ، وأم واحدة ، حتى التعليم فى المدارس على مستوى واحد ، ومع ذلك تجد أحد الأبناء مستـقيماً ملتزماً ، وتجد الآخر على النقـيض ، فلمَّا بحثوا فى سبب هذه الظاهرة وجـدوا أن الولد المستقـيم كانت فترة تربـيته وطفولته فى وقت كان والده مريضـاً ويلازم بيته لمدة ست سنوات ، فأخـذ هذا الولد أكبر قـسْط من الرعاية والتـربية ، ولم يجد الفـرصة للخروج من البيت أو الاختلاط برفاق السوء .

وفى نموذج آخر لأحد الأبناء المنحرفـين وجدوا أن سبب انحرافه

أن والده فى فترة تربيته وتنشئته كان تاجراً ، وكان كثير الأسفار ، ومع ذلك كان يُغْدِق على أسرته ، فتربَّى الولد فى سَعَة من العيش ، بدون مراقبة الأب .

وفى نموذج آخر وجدوا أخوين : أحدهما متفوق ، والآخر فاشل ، ولما بحثوا أسباب ذلك رغم أنهما يعيشان ظروفاً واحدة وجدوا أن الابن المتفوق صحته ضعيفة ، فمال إلى البيت والقراءة والاطلاع ، وكان الآخر صحيحاً وسيماً ، فمال إلى حياة الترف ، وقضى معظم وقته خارج البيت . والأمثلة فى هذا المجال كثيرة .

إذن : فالابتلاءات لها مغانم ، ومن ورائها حِكَم ؛ لأنها ناشئة وجارية عليك بحكمة ربك وخالقك ، وليست من سَعْيك ولا من عمل يدك ، وما دامت كذلك فارْضَ بها ، واعبد الله بإخلاص وإيمان ثابت فى الخير وفى الشر.

ومعنى : ﴿يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ .. (١١)﴾ [الحج] والحرف : هو طرف الشيء ، كأن تدخل فتجد الغرفة ممتلئة فتجلس على طرف فى آخر الجالسين ، وهذا عادةً لا يكون معه تمكُّن واطمئنان ، كذلك مَنْ يعبد الله على حرف يعنى : لم يتمكَّن الإيمان من قلبه ، وسرعان ما يُخرجه الابتلاء عن الإيمان ، لأنه عبد الله عبادةً غير متمكنة باليقين الذى يصدر عن المؤمن بإله حكيم فيما يُجريه على عبده .

والآية لم تترك شيئاً من هواجس النفس البشرية سواء فى الخير أو فى الشر .

وتأمل قول الله تعالى : ﴿فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ .. (١١)﴾ [الحج] وكذلك : ﴿وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ .. (١١)﴾ [الحج] فأنت لا تقول : أصبتُ الخيرَ ، إنما الخير هو الذى أصابك وأتاك إلى بابك ، فأنت لا تبحث عن رزقك

بقدر ما يبحث هو عنك ؛ لذلك يقول تعالى : ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ② وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ .. ③﴾ [الطلاق]

ويقول أهل المعرفة : رِزْقك أعلم بمكانك منك بمكانه ، يعنى يعرف عنوانك أما أنت فلا تعرف عنوانه ، بدليل أنك قد تطلب الرزق فى مكان فلا تُرزَق منه بشىء ، وقد ترى الزرع فى الحقول زاهياً تأمل فيه المحصول الوفير ، وتبنى عليه الآمال ، فإذا بعاصفة أو آفة تأتى عليه ، فلا تُرزَق منه حتى بما يسدُّ الرَّمَق .

ولنا عبرة ومثَلٌ فى ابن أُذَيْنة[1] حين ضاقت به الحال فى المدينة ، فقالوا له : إن لك صحبة بهشام بن عبد الملك الخليفة الأموى فاذهب إليه ينالك من خير الخلافة. وفعلاً سافر ابن أذينة إلى صديقه ، وضرب إليه أكباد الإبل حتى الشام ، واستأذن فأذن له ، واستقبله صاحبه ، وسأله عن حاله فقال : فى ضيق وفى شدة . وكان فى مجلس الخليفة علماء فقال له : يا عروة ألست القائل ـ وكان ابن أُذَيْنَة شاعراً :

لَقَد عَلِمت ومَا الإسْرَافُ مِنْ خُلُقِى     أنَّ الذى هُوَ رِزْقِى سَوْفَ يأتِينى؟[2]

وهنا أحسَّ عروة أن الخليفة كسر خاطره ، وخَيَّب أمله فيه ، فقال له : جزاك الله خيراً يا أمير المؤمنين ، لقد ذكَّرت منى ناسياً ، ونبَّهْتَ منى غافلاً ، ثم انصرف .

فلما خرج ابن أُذيْنة من مجلس الخليفة ، وفكَّر الخليفة فى

---

(١) هو : عروة بن يحى ( ولقبه أذينة ) بن مالك بن الحارث الليثى : شاعر غزل مقدم ، من أهل المدينة ، وهو معدود من الفقهاء والمحدثين أيضاً ، ولكن الشعر أغلب عليه . توفى نحو ١٣٠ هـ [ الأعلام للزركلى ٤/٢٢٧ ] .

(٢) ذكر هذا البيت والذى بعده خير الدين الزركلى فى كتابه الأعلام ( ٤/٢٢٧ ) من شعر عروة بن أذينة . وانظر : الشعر والشعراء ٢٢٥ ، فوات الوفيات ٢/٣٤ .

الموقف وأنَّب نفسه على تصرُّفه مع صاحبه الذى قصد خَيْره ، وكيف أنه رَدَّه بهذه الصورة ، فأراد أنْ يُصلح هذا الخطأ ، فأرسل إليه رسولاً يحمل الهدايا الكثيرة ، إلا أن رسول الخليفة كلما تبع ابن أُذَيْنة فى مكان وجده قد غادره إلى مكان آخر ، إلى أنْ وصل إلى بيته ، فطرق الباب ، وأخبره أن أمير المؤمنين قد ندم على ما كان منه ، وهذه عطاياه وهداياه .

وهنا أكمل ابن أُذَيْنة بيته الأول ، فقال :

أَسْعَى لَهُ فَيُعَنِّينى تطلُّبه　　　وَلَوْ قَعَدْتُ أَتَانى لاَ يُعنِّينى

كذلك نلحظ فى هذه الآية : ﴿فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ .. (١١)﴾ [الحج] ولم يقابل الخير بالشر ، إنما سماها ( فِتْنَة ) أى : اختبار وابتلاء ؛ لأنه قد ينجح فى هذا الاختبار فلا يكون شراً فى حَقِّه .

ومعنى : ﴿انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ .. (١١)﴾ [الحج] يعنى : عكس الأمر ، فبعد أنْ كان عابداً طائعاً انقلب إلى الضِّدِّ فصار عاصياً ﴿خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ .. (١١)﴾ [الحج] وخسْران الإنسان لعبادته خسران كبيرٌ لا يُجْبَر ولا يُعوِّضه شيء ؛ لذلك يقول بعدها : ﴿ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (١١)﴾ [الحج] فهل هناك خُسْران مبين ، وخسران غير مبين ؟

نعم : الخسران هو الخسارة التى تُعوَّض ، أما الخسارة التى لا عوضَ لها فهذه هى الخسران المبين الذى يلازم الإنسان ولا ينفكُّ عنه ، وهو خُسْران لا يقتصر على الدنيا فقط فيمكن أنْ تُعوِّضه أو تصبر عليه ، إنما يمتد للآخرة حيث لا عوضَ لخسارتها ولا صَبْر على شِدَّتها . فالخسران المبين أى : المحيط الذى يُطوِّق صاحبه .

لذلك نقول لمن فقد عزيزاً عليه ، كالمرأة التى فقدت وحيدها مثلاً : إنْ كان الفقيد حبيباً وغالياً فبيعوه غالياً وادخلوا به الجنة ، ذلك حين تصبرون على فَقْده وتحتسبونه عند الله ، وإنْ كنتم خسرتم به الدنيا فلا تخسروا به الآخرة ، فإنْ لطَمْنا الخدود وشَقَقْنَا الجيوب ، واعترضنا على قَدَر الله فيه فقد خسرنَا به الدنيا والآخرة .

وصدق رسول الله ﷺ حين قال : « عجباً لأمر المؤمن ، إن أمره كله خير : إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له ، وإنْ أصابته ضراء صبر فكان خيراً له ، وليس ذلك إلا للمؤمن »[1] .

والصبر عند البلاء ، والشكر عند الرخاء مرتبة من مراتب الإيمان ، ومرحلة من مراحل اليقين فى نفس المؤمن ، وهى بداية وعَتَبة يتلوها مراحل أخرى ومراقٍ ، حَسْب قوة الإيمان .

اسمع إلى هذا الحوار الذى دار بين أهل المعرفة من الزُّهَّاد ، وكيف كانوا يتبارَوْنَ فى الوصول إلى هذه المراقى الإيمانية ، ويتنافسون فيها ، لا عن مُبَاهاة ومفاخرة ، إنما عن نية خالصة فى الرُّقى الإيمانى .

يسأل أحد هؤلاء المتمكِّنين صاحبه : كيف حال الزهاد فى بلادكم ؟ فقال : إن أصابنا خير شكرنا ، وإن أصابنا شَرٌّ صبرنا ، فضحك الشيخ وقال : وما فى ذلك ؟! إنه حال الكلاب فى بَلْخ . أما عندنا : فإنْ أصابنا خير آثرنا ، وإنْ أصابنا شَرٌّ شكرنا .

وهذه ليست مباهاة إنما تنافس ، فكلاً الرجلين زاهد سالك لطريق الله ، يرى نفسه محسوباً على هذا الطَريق ، فيحاول أنْ يرتقىَ فيه

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه ( ٢٢٩٩ ) كتاب الزهد ، وأحمد فى مسنده ( ٥/٢٤ ) ، والدارمى فى سننه (٢/٣١٨) من حديث صهيب الرومى رضى الله عنه .

إلى أعلى مراتبه ، فإياك أنْ تظن أن الغاية عند الصبر على البلاء والشُّكْر على العطاء ، فهذه البداية وبعدها منازل أَعْلَى ومَراقٍ أسمى لمن طلبَ العُلاَ ، وشمَّر عن ساعد الجد فى عبادة ربه .

انظر إلى أحد هؤلاء الزُّهَّاد يقول لصاحبه : ألاَ تشتاق إلى الله ؟ قال : لا ، قال مُتعجباً : وكيف ذلك ؟ قال : إنما يُشتاق لغائب ، ومتى غاب عنى حتى أشتاق إليه ؟ وهكذا تكون درجات الإيمان وشفافية العلاقة بين العبد وربه عز وجل .

ثم يقول الحق سبحانه عن هذا الذى يعبد الله على حرف :

﴿ يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٢﴾ ﴾

معنى : ﴿ مَا لا يَضُرُّهُ .. ﴿١٢﴾ ﴾ [الحج] هل الصنم الذى يعبده الكافر من دون الله يمكن أن يضره ؟ لا ، الصنم لا يضر ، إنما الذى يضره حقيقة مَنْ عانده وانصرف عن عبادته ، تضره الربوبية التى يعاندها والمجَازِى الذى يجازيه بعمله ، إذن : فما معنى : ﴿ يَضُرُّهُ .. ﴿١٢﴾ ﴾ [الحج] هنا ؟

المعنى : لا يضره إن انصرف عنه ولم يعبده ، ولا ينفعه إنْ عبده : ﴿ ذَلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ ﴿١٢﴾ ﴾ [الحج] نعم ضلال : لأن الإنسان يعبد ويطيع مَنْ يرجو نفعه فى أىِّ شىء ، أو يخشى ضره فى أىِّ شىء .

وقد ذكرنا سابقاً قول بعض العارفين : ( واجعل طاعتك لمن لا تستغنى عنه ) ، ولو قلنا هذه المقولة لأبنائنا فى الكتب الدراسية ،

واهتمَّ بها القائمون على التربية لما أغرى الأولاد بعضهم بعضاً بالفساد ، ولوقفَ الولد يفكر مرة وألف مرة فى توجيهات ربه ، ونصائح أبيه وأمه ، وكيف أنه سيترك توجيهات مَنْ يحبونه ويخافون عليه ويرجُون له الخير إلى إغراء صديق لا يعرف عنه وعن أخلاقه شيئاً .

لا بُدَّ أنْ نُطعِّم أبناءنا مبادىء الإسلام ، ليعرف الولد منذ صغَره مَنْ يحبه ومَنْ يكرهه ، ومَنْ هو أوْلَى بطاعته .

وتلحظ فى الآية أن الضر سابق للنفع : ﴿مَا لا يَضُرُّهُ وَمَا لا يَنفَعُهُ .. (١٢)﴾ [الحج] لأن دَرْءَ المفسدة مُقدَّم على جَلْب المصلحة ؛ لأن المفسدة خروج الشيء عن استقامة تكوينه ، والنفع يزيدك ويضيف إليك ، أما الضر فينقصك ، لذلك خَيْر لك أنْ تظل كما أنت لا تنقص ولا تزيد ، فإذا وقفتَ أمام أمرين : أحدهما يجلب خيراً ، والآخر يدفع شراً ، فلا شكَّ أنك ستختار دَفْع الشر أولاً ، وتشتغل بدَرْء المفسدة قبل جَلْب المصلحة .

وضربنا لذلك مثلاً : هَبْ أن إنساناً سيرمى لك بتفاحة ، وآخر سيرميك بحجر فى نفس الوقت ، فماذا تفعل ؟ تأخذ التفاحة ، أو تتقى أَذَى الحجر ؟ هذا هو معنى « دَرْء المفسدة مُقدَّم على جَلْب المصلحة » .

﴿يَدْعُوا لَمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ لَبِئْسَ الْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ (١٣)﴾

الآية السابقة تثبت أنه يدعو مَا لا يضُرُّه ومَا لا ينفعه ، وهذه الآية تُثبت أنه يدعو مَنْ ضَرُّه أقرب من نَفْعه .

صيغة أفعل التفضيل ( أقرب ) تدل على أن شيئين اشتركا فى صفة واحدة ، إلا أن أحدهما زاد عن الآخر فى هذه الصفة ، فلو قُلْتَ : فلان أحسن من فلان . فهذا يعنى أن كلاهما حَسَن ، لكن زاد أحدهما عن الآخر فى الحُسْن .

فقوله تعالى : ﴿يَدْعُو لَمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ .. (١٣)﴾ [الحج] إذن : هناك نَفْع وهو قريب ، لكن الضر أقرب منه ، فهذه الآية فى ظاهرها تُناقض الآية السابقة ، والحقيقة ليس هناك تناقض ، ولا بُدَّ أنْ نفهمَ هذه المسألة فى ضوء قوله تعالى : ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا (٨٢)﴾ [النساء]

فالأوثان التى كانوا يعبدونها كان لها سَدَنة يتحكَّمون فيها وفى عابديها ، فإذا أرادوا من الآلهة شيئاً قالوا للسدنة : ادعوا الآلهة لنا بكذا وكذا ، إذن : كان لهم نفوذ وسُلْطة زمنية ، وكانوا هم الواسطة بين الأوثان وعُبَّادها ، هذه الواسطة كانت تُدرُّ عليهم كثيراً من الخيرات وتعطيهم كثيراً من المنافع ، فكانوا يأخذون كل ما يُهْدَى للأوثان .

فالأوثان ـ إذن ـ سبب فى نَفْع سدنتها ، لكن هذا النفع قصاراه فى الدنيا ، ثم يتركونه بالموت ، فمدة النفع قصيرة ، وربما أتاه الموت قبل أنْ يستفيد بما أخذه ، وإنْ جاء الموت فلا إيمانَ ولا عملَ ولا توبةَ ، وهذا معنى ﴿ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ .. (١٣)﴾ [الحج]

لذلك يقول تعالى بعدها : ﴿لَبِئْسَ الْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ (١٣)﴾ [الحج] كلمة ( بئس ) تُقَال للذم وهى بمعنى : ساء وقَبُح ، والمولَى : الذى يليك ويقرُب منك ، ويُراد به النافع لك ؛ لأنك لا تقرِّب إلا النافع لك ، إما لأنه يعينك وقت الشدة ، ويساعدك وقت الضيق ، وينصرك إذا احتجتَ لِنُصْرته ، وهذا هو الولىُّ .

وإما أنْ تُقرِّبه منك ؛ لأنه يُسليك ويجالسك وتأنس به ، لكنه ضعيف لا يقوى على نُصْرتك ، وهذا هو العشير .

والأصنام التى يعبدونها بئست المولى ؛ لأنها لا تنصرهم وقت الشدة ، وبئست العشير ؛ لأنها لا تُسليهم ، ولا يأنسون بها فى غير الشدة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿١٤﴾ ﴾

بعد أن تكلَّم الحق ـ سبحانه وتعالى ـ عن الكفار وأهل النار ومَنْ يعبدون الله على حَرْف ، كان لا بُدَّ أنْ يأتىَ بالمقابل ؛ لأن النفس عندها استعداد للمقارنة والتأمل فى أسباب دخول النار ، وفى أسباب دخول الجنة ، وهذا أَجْدَى فى إيقاع الحجة .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ ﴾ [الانفطار] وقوله تعالى : ﴿ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيراً .. ﴿٨٢﴾ ﴾ [التوبة]

فذكْر النعمة وحدها دون أنْ تقابلها النِّقْمة لا تُؤتى الأثر المطلوبَ ، لكن حينما تقابل النعمة بالنقمة وَسلْب الضر بإيجاب النفع فإنَّ كلاهما يُظهر الآخر ؛ لذلك يقول تعالى : ﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ .. ﴿١٨٥﴾ ﴾ [آل عمران] فإنْ آمنتَ لا تُزَحْزح عن النار فقط ـ مع أن هذه فى حَدِّ ذاتها نعمة ـ لكن تُزَحْزح عن النار وتدخل الجنة .

والإيمان : عمل قلبى ومواجيد تطمئن بها النفس ، لكن الإيمان له مطلوب : فأنت آمنتَ بالله ، واطمأنَّ قلبك إلى أن الله هو الخالق الرازق واجب الوجود .. إلخ ، فما مطلوب هذا الإيمان ؟

مطلوب الإيمان أنْ تستمع لأوامره ، لأنه حكيم ، وتثق فى قدرته لأنه قادر ، وتخاف من بطشه لأنه جبار ، ولا تيأس من بَسْطه لأنه باسط ، ولا تأمن قبضه لأنه قابض .

لقد آمنتَ بكل هذه القضايا ، فحين يأمرك بأمر فعليك أنْ تستحضر حيثيات هذا الأمر ، وأنت واثق أن ربك عز وجل لم يأمرك ولم يَنْهكَ من فراغ ، إنما من خلال صفات الكمال فيه سبحانه ، أو صفات الجلال والجبروت ، فاستحضر فى كُلِّ أعمالك وفى كُلِّ ما تأتى أو تدع هذه الصفات .

لذلك ، جمعت الآية بين الإيمان والعمل الصالح : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ .. (١٤)﴾ [الحج]

وفى سورة العصر : ﴿وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ.. (٣)﴾ [العصر] ليس ذلك وفقط إنما أيضاً : ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣)﴾ [العصر]

فالتواصى بالحق والصبر على الشدائد من الاستجابة لداعى الإيمان وثمرة من ثماره ؛ لأن المؤمن سيتعرَّض فى رحلة الحياة لفتَن كثيرة قد تزلزله ، وسيواجه سُخْرية واستهزاءً ، وربما تعرَّض لألوان العذاب .

فعليه - إذن - أنْ يتمسَّك بالحق ويتواصى به مع أخيه ، وعليه أن يصبر ، وأنْ يتواصى بالصبر مع إخوانه ، ذلك لأن الإنسان قد

تعرض له فترات ضَعْف وخَوَر ، فعلى القوى فى وقت الفتنة أنْ ينصحَ الضعيف .

وربما تبدَّل هذا الحال فى موقف آخر وأمام فتنة أخرى ، فَمنْ أوصيْتَه اليوم بالصبر ربما يوصيك غداً ، وهكذا يُثمِر فى المجتمع الإيمانى التواصى بالحق والتواصى بالصبر .

إذن : تواصَوْا ؛ لأنكم ستتعرضون لهزَّات ليست هزَّات شاملة جامعة ، إنما هزَّات يتعرض لها البعض دون الآخر ، فإنْ ضعُفْتَ وجدتَ من إخوانك مَنْ يُواسيك : اصبر ، تجلَّد ، احتسب . وإياك أنْ تُزحزحك الفتنة عن الحق ، أو تخرج عن الصبر ، وهذه عناصر النجاة التى ينبغى للمؤمنين التمسك بها : إيمان ، وعمل صالح ، وتواصٍ بالحق ، وتواصٍ بالصبر .

وقوله سبحانه : ﴿جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ .. (١٤)﴾ [الحج] الجنات : هى الحدائق والبساتين المليئة بأنواع المتَع : الزرع ، والخضرة ، والنضارة ، والزهور ، والرائحة الطيبة ، وهذه كلها بنت الماء ؛ لذلك قال : ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ .. (١٤)﴾ [الحج] ومعنى : ﴿مِن تَحْتِهَا .. (١٤)﴾ [الحج] أن الماء ذاتىٌّ فيها ، لا يأتيها من مكان آخر ربما ينقطع عنها ، كما جاء فى آية أخرى : ﴿تَجْرِى تَحْتَهَا الأَنْهَارُ .. (١٠٠)﴾ [التوبة]

ثم يقول سبحانه : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ[1] (١٤)﴾ [الحج] لأنه سبحانه لا يُعْجزه شىء ، ولا يعالج أفعاله كما يعالج البشر أفعالهم ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٨٢)﴾ [يس]

---

(١) أى : يثيب من يشاء ويعذب من يشاء ، فللمؤمنين الجنة بحكم وعده الصدق وبفضله ، وللكافرين النار بما سبق من عدله . [ قاله القرطبى فى تفسيره ( ٤٥٥٢/٦ ) ] .

ولو تأملتَ هذه الآية لوجدتَ الشـىء الذى يريده الله ويأمر بكونه موجوداً فى الحقيقة ، بدليل أن الله تعالى يخاطبه ﴿ يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٨٢) ﴾ [يس] فهو ـ إذن ـ كائـن فعلاً ، وموجود حقيـقةً ، والأمر هنا إنما هو لإظهاره فى عالم المشاهدة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ (١٥) ﴾ [1]

( يظنّ ) تفيد علْماً غير يقينى وغير مُتأكد ، وسبق أنْ تكلَّمنا فى نسبـة القضايا ، فهـناك حكم محكوم به ومحكوم عليـه ، تقول : زيد مجـتهد ، فـأنت تعتقـد فى نسْبة الاجـتهاد لزيد ، فـإنْ كان اعتـقادك صحيحاً فتستطيع أنْ تُقدِّم الدَليل على صحته فتقول : بدليل أنه ينجح كل عام بتفوق .

أما إذا اعتقد هذه القضيـة ولم يُقدِّم عليها دليلاً كأنْ سمع الناسَ يقولون : زيد مـجتـهد . فقـال مثلهم ، لكن لا دليلَ عنـده على صدْق

(١) ورد فى هذه الآية تأويلان لها :
١ ـ من كان يظن أن لن ينصر الله محمداً ﷺ فى الدنيا والآخرة فليمـدد بسبب أى بحبل إلى السمـاء ـ أى : سماء بيته ـ ثم ليـقطع . أى : ثم ليخـتنق به . قاله ابن عـباس ومجاهد وعكرمة وعطاء وقتادة وغيرهم .
٢ ـ من كان يظـن أن لن ينصر الله نبيـه ويكايد هذا الأمر ليـقطعه عنه ، فليـقطع ذلك من أصله من حيث يأتيه فإن أصله فى السـماء ( ثم ليقطع ) أى : عن النبى الوحىَ الذى يأتيه من الله إن قدر . قاله عبد الرحمن بن زيد بن أسلم .
قال ابن كثيـر فى تفسيره ( ٣/٢١٠ ) : « قول ابن عبـاس وأصحابه أولى وأظهر فى المعنى وأبلغ فى التهكم » . وانظر الدر المنثور للسيوطى ( ٦/١٥ ، ١٦ ) وقد قال الشيخ الشعراوى ـ رحمة الله عليه ـ بكلا القولين ، فكلاهما صحيح محتمل والله أعلم .

هذه المقولة ، كالطفل الذى نُلقّنه ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ①﴾ [الإخلاص] هذه قضية واقعية يعتقدها الولد ، لكن لا يستطيع أنْ يُقدِّم الدليل عليها إلا عندما يكبُر ويستوى تفكيره .

فمن أين أخذ الطفل هذه القضية واعتقدها ؟ أخذها من المأمون عليه : من أبيه أو من أستاذه ثم قلَّده . إذن : إنْ كانت القضية واقعة ، لكنْ لا تستطيع أنْ تقيم الدليل عليها فهى تقليد ، فإن اعتقدتَ قضية واقعة ، وأقمْتَ الدليل عليها ، فهذا أسْمى مراتب العلم ، فإن اعتقدتَ قضيةً غير واقعية ، فهذا جهل .

فالجاهل : مَنْ يعتقد شيئاً غير واقع ، وهذا الذى يُتعب الدنيا كلها ، ويُشْقى مَن حوله ، لأن الجاهل الأميَّ الذى لا يعلم شيئاً ، وليست لديه فكرة يعتقدها صفحة بيضاء ، تستطيع أنْ تقنعه بالحقيقة ويقبلها منك ؛ لأنه خالى الذهن ولا يعارضك .

أما الجاهل صاحب الفكرة الخاطئة فيحتاج منك أولاً أنْ تُقنعه بخطأ فكرته حتى يتنازل عنها ، ثم تُلقى إليه بالفكرة الصواب .

فإنْ تشككْتَ فى النسبة بحيث استوت عندك نسبة الخطأ مع نسبة الصواب ، فهذا هو الشكُّ ، فلا تستطيع أنْ تجزم باجتهاد زيد ، ولا بعدم اجتهاده ، فإنْ غلب الاجتهاد فهو ظَنٌّ ، فإنْ غلب عدم الاجتهاد فهو وَهْم .

إذن : نسبة القضايا إما **علم** تعتقده : وهو واقع وتستطيع أنْ تقيمَ الدليل عليه ، أو **تقليد** : وهو ما تعتقده وهو واقع ، لكن لا تقدر على إقامة الدليل عليه ، أو **جهل** : حين تعتقد شيئا غير واقع ، أو **شك** : حين لا تجزم بالشىء ويستوى عندك النفى والإثبات ، أو **ظن** : حين تُرجِّح الإثبات ، أو **وهم** : حين تُرجِّح النفى .

فالظن فى قوله تعالى : ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ اللَّهُ .. ⑮﴾ [الحج] أى : يمرُّ بخاطره مجرد مرور أن الله لن ينصر محمداً ، أو يتوهَّم ذلك - ولا يتوهم ذلك إلا الكفار - لأنهم يأملون ذلك فى معركة الإيمان والكفر - مَنْ ظَنَّ هذا الظنَّ فعليه أنْ ينتهىَ عنه ؛ لأنه أمر بعيد ، لن يحدث ولن يكون .

وقد ظَنَّ الكفار هذا الظن حين رأَوْا بوادر نصر الإيمان وعلامات فوزه ، فاغتاظوا لذلك ، ولم يجدوا شيئاً يريح خاطرهم إلا هذا الظن .

لذلك ؛ يردُّ الله غيظهم عليهم ، فيقول لهم : ستظلون بغيظكم ؛ لأن النصر للإيمان ولجنوده مستمر ، فليس أمامك إلا أنْ تجعل حبلاً فى السماء وتربط عنقك به ، تشنق نفسك حتى تقع ، فإنْ كان هذا الكيد لنفسك يُنجيك من الغيظ فافعل :

﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ ⑮﴾ [الحج]

لكن ما الغيظ ؟ الغيظ : نوع من الغضب مصحوب ومشُوب بحزن وأَسَىً وحَسْرة حينما ترى واقعاً يحدث أمام عينيك ولا يرضيك ، وفى الوقت نفسه لا تستطيع أن تفعل شيئاً تمنع به مَا لا يُرضيك .

وهذه المادة ( غيظ ) موجودة فى مواضع أخرى[1] من كتاب

---

(١) وردتْ هذه المادة فى القرآن الكريم :
- يغيظ . الفعل المضارع . ورد ٣ مرات : ( التوبة ١٢٠ ) ، ( الحج ١٥ ) ، ( الفتح ٢٩ ) .
- الغيظ . الاسم معرف بالـ ورد ٤ مرات : ( آل عمران ١١٩ ، ١٣٤ ) ، ( التوبة ١٥ ) ، ( الملك ٨ ) .
- بغيظكم . الاسم قبله حرف الجر الباء ومضاف إلى ضمير المخاطب للجمع ، ورد مرة واحدة : ( آل عمران ١١٩ ) .
- بغيظهم . الاسم قبله حرف الجر الباء ومضاف إلى ضمير الغيبة للجمع . ورد مرة واحدة : ( الأحزاب ٢٥ ) .
- لغائظون . اسم الفاعل الجمع مؤكد باللام ورد مرة واحدة : ( الشعراء ٥٥ ) .
- تغيظاً : مصدر الفعل تغيَّظ . ورد مرة واحدة : ( الفرقان ١٢ ) .

الله ، وقد استُعْمِلَتْ حتى للجمادات التى لا تُحسُّ ، اقرأ قول الله تعالى عن النار : ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ .. ⦗٨⦘﴾ [الملك] وقال : ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ⦗١٢⦘﴾ [الفرقان] فكأن النار مغتاظة من هؤلاء ، تتأهب لهم وتنتظرهم .

والغَيْظ يقع للمؤمن وللكافر ، فحين نرى عناد الكفار وسُخريتهم واستهزاءهم بالإيمان نغتاظ ، لكن يُذهب الله غيْظ قلوبنا ، كما قال سبحانه : ﴿وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ .. ⦗١٥⦘﴾ [التوبة]

أما غيْظ الكفار من نصْر الإيمان فسوف يَبْقى فى قلوبهم ، فربُّنا - سبحانه وتعالى - يقول لهم : ثقُوا تماماً أن الله لم يرسل رسولاً إلا وهو ضامن أنْ ينصره ، فإنْ خطر ببالكم خلافُ ذلك فلن يُريحكم ويَشْفى غيظكم إلاّ أنْ تشنقوا أنفسكم ؛ لذلك خاطبهم الحق سبحانه فى آية أخرى فقال : ﴿قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ .. ⦗١١٩⦘﴾ [آل عمران]

ومعنى : ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ .. ⦗١٥⦘﴾ [الحج] ﴿فَلْيَمْدُدْ .. ⦗١٥⦘﴾ [الحج] : من مدَّ الشىء يعنى : أطاله بعد أنْ كان مجتمعاً ، ومنه قوله تعالى : ﴿وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا.. ⦗١٩⦘﴾ [الحجر] فكلما تسير تجد أرضاً ممتدة ليس لها نهاية ، وليس لها حافَّة .

والسبب : الحبل ، يُخرجون به الماء من البئر ، لكن هل يستطيع أحد أنْ يربط حبلاً فى السماء ؟ إذن : علَّق المسألة على محال ، وكأنه يقول لهم : حتى إنْ أردتم شَنْق أنفسكم فلن تستطيعوا ، وسوف تظلُّون هكذا بغيظكم .

أو : يكون المعنى : ﴿إِلَى السَّمَاءِ .. ⦗١٥⦘﴾ [الحج] يعنى : سماء البيت وسقفه ، كمَنْ يشنق نفسه فى سَقْف البيت .

ويمكن أن نفهم ( السبب ) على أنه أىّ شىء يُوصِّلك إلى السماء ، وأىّ وسيلة للصعود ، فيكون المعنى : خذوا أىَّ طريقة تُوصِّلكم إلى السماء لتمنعوا عن محمد أسباب النصر ؛ لأن نَصْر محمد يأتى من السماء فامنعوه ، وهذه أيضاً لا يقدرون عليها ، وسيظل غيظهم فى قلوبهم .

وتلحظ أننا نتكلم عن محمد ﷺ ، مع أن الآية لم تذكر شيئاً عنه ، وكل ما جاء فى الآية ضمير الغائب المفرد فى قوله تعالى : ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ اللَّهُ.. (١٥)﴾ [الحج] والحديث مُوجَّه للكفار المغتاظين من بوادر النصر لركْب الإيمان ، فقوله : ﴿يَنصُرَهُ .. (١٥)﴾ [الحج] ينصر مَنْ ؟ لا بُدَّ أنه محمد ، لماذا ؟

قالوا : لأن الأسماء حينما تُطلَق تدلُّ على مَعَانٍ ، فعندما تقول « سماء » نفهم المراد ، وعندما تقول « قلب » نفهم ، « نور » نعرف المراد . والأسماء إما اسم ظاهر مثل : محمد وعلى وعمر وأرض وسماء ، وإما ضمائر تدل على هذه الأسماء الظاهرة مثل : أنا ، أنت ، هو ، هم . والضمير مُبْهم لا يُعيِّنه إلا التكلُّم ، فأنت تقول : أنا وكذلك غيرك يقول أنا أو نحن ، فالذى يُعيِّن الضمير المتكلّم به حال الخطاب ، فعُمْدة الفهم فى الضمائر ذات المتكلم وذات المخاطب . فإنْ لم يكُنْ متكلّماً ولا مخاطباً فهو غائب ، فمن أين تأتى بقرينة التعريف للغائب ؟

حين تقول : هو ، هى ، هم . مَن المراد بهذه الضمائر ؟ كيف تُعيِّنها ؟ إنْ عيَّنْتَ المتكلم بكلامه ، والمخاطب بمخاطبته ، كيف تُعيِّن الغائب ؟ قالوا : لا بُدَّ أنْ يسبقه شىء يدل عليه ، كأن تقول : جاءنى رجل فأكرمتُه ، أكرمت مَنْ ؟ أكرمت الرجل الذى تحدثتُ عنه ، جاءتنى امرأة فأكرمتُها ، جاء قوم فلان فأكرمتهم . إذن : فمرجع الضمير هو الذى يدلُّ عليه .

لكن لم يسبق ذِكْر لرسول الله ﷺ قبل الضمير ليُعيِّنه ويدلَّ عليه ، نعم لم يسبق ذكْر لرسول الله ، لكن تأمَّل المعنى : الكلام هنا عن النصر بين فريق الإيمان وعلى رأسه محمد ﷺ ، وفريق الكفر وعلى رأسه هؤلاء المعاندون ، فالمقام مُتعيِّن أنه لا يعود الضمير إلا على رسول الله ﷺ[1] .

ومثال ذلك قوله تعالى : ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ .. ①﴾ [القدر]

فالضمير هنا مُتعيِّن ، ولا ينصرف إلا إلى القرآن ، ولا يتعين الضمير إلا إذا كان الخاطر لا ينصرف إلى غيره فى مقامه .

اقرأ : ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ①﴾ [الإخلاص] تلحظ أن الضمير سابق على الاسم الظاهر ، فالمرجع متأخر ، ومع ذلك لا ينصرف الضمير إلا إلى الله ، فإذا قِيلَ : هو هكذا على انفراد لا يمكن أن ينصرف إلا إلى الله عز وجل .

كذلك فى قوله تعالى : ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ .. ⑥①﴾ [النحل] . على ظَهْر أىِّ شىء ؟ الذِّهْن لا ينصرف فى هذا المقام إلا إلى الأرض .

وقوله تعالى : ﴿فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ ⑮﴾ [الحج] الاستفهام هنا ممَّنْ يعلم ، فهو استفهام للتقرير ، ليُقرّوا هم بأنفسهم أن غَيْظهم سيَظلُّ كما هو ، لا يشفيه شىء ، وأنهم سيموتون بغيظهم ، كما قال تعالى : ﴿قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ .. ①①⑨﴾ [آل عمران]

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره ( ٤٥٥٣/٦ ) : « الكناية فى ﴿يَنصُرَهُ اللَّهُ .. ⑮﴾ [الحج] . ترجع إلى محمد ﷺ ، وهو وإن لم يجر ذكره فجميع الكلام دال عليه ، لأن الإيمان هو الإيمان بالله وبمحمد ﷺ ، والانقلاب عن الدين انقلاب عن الدين الذى أتى به محمد ﷺ » .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ ﴿١٦﴾ ﴾

قوله : ﴿أَنزَلْنَاهُ .. ﴿١٦﴾﴾ [الحج] أى : القرآن ؛ لأن الضمير هنا كما ذكرنا مرجعه مُتعيِّن ، وما دام مرجعه مُتعيناً فلا يحتاج لذكر سابق . والإنزال يحمل معنى العلو ، فإنْ رأيتَ فى هذا التشريع الذى جاءك فى القرآن ما يشقُّ عليك أو يحولُ بينك وبين ما تشتهيه نفسك ، فاعلم أنه من أعْلى منك ، من الله ، وليس من مُسَاوٍ لك ، يمكن أنْ تستدرك عليه أو تناقشه : لماذا هذا الأمر ؟ ولماذا هذا النهى ؟ فطالما أن الأمر يأتيك من الله فلا بُدَّ أن تسمع وتطيع ولا تناقش .

ولنا أُسْوة فى هذا التسليم بسيدنا أبى بكر لما قالوا له : إن صاحبك يقول : إنه أُسْرِى به الليلة من مكة إلى بيت المقدس ، ثم عُرِج به إلى السماء ، فما كان من الصِّدِّيق إلا أنْ قال : إنْ كان قال فقد صدق[1] ، هكذا دون مناقشة ، فالأمر من أعلى ، من الله .

وقلنا : إنك لو عُدْتَ مريضاً فوجدتَ بجواره كثيراً من الأدوية فسألته : لماذا كل هذا الدواء ؟ قال : لقد وصفه الطبيب ، فأخذت تعترض على هذا الدواء ، وتذكر من تفاعلاته وأضراره وعناصره ، وأقحمت نفسك فى مسألة لا دَخْلَ لك بها .

---

(١) ذكره ابن هشام فى السيرة النبوية ( ١/٣٩٨ ) ، وأخرجه الحاكم فى مستدركه ( ٣/٦٢ ) وصححه وأقره الذهبى من حديث عائشة رضى الله عنها .

هذا قياس مع الفارق ومع الاعتراف بأخطاء الأطباء فى وصف الدواء ، لكن لتوضيح المسألة ولله المثل الأعلى ، وصدق القائل :

سُبْحانَ مَنْ يَرِثُ الطَّبِيبَ وطِبَّهُ ويُرِى المريض مَصَارِعَ الآسِينا

إذن : حجة كل أمر ليس أن نعلم حكمته ، إنما يكفى أنْ نعلم الآمر به .

ومعنى ﴿آيَاتٍ .. (١٦)﴾ [الحج] أى : عجائب ﴿بَيِّنَاتٍ .. (١٦)﴾ [الحج] واضحات . وسبق أنْ ذكرنا أنَّ كلمة الآيات تُطلَق على معَانٍ ثلاثة : الآيات الكونية التى تُثْبِت قدرة الله ، وبها يستقر الإيمان فى النفوس ، ومنها الليل والنهار والشمس والقمر ، والآيات بمعنى المعجزات المصاحبة للرسل لإثبات صدْق بلاغهم عن الله ، والآيات التى يتكوَّن منها القرآن ، وتُسمَّى « حاملَة الأحكام » .

فالمعنى هنا ﴿وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ .. (١٦)﴾ [الحج] تحمل كلمة الآيات كُلَّ هذه المعانى ، فآيات القرآن فيها الآيات الكونية ، وفيها المعجزة ، وهى ذاتها آيات الأحكام .

ثم يقول سبحانه : ﴿وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يُرِيدُ (١٦)﴾ [الحج] وهذه من المسائل التى وقف الناس حولها طويلاً : ﴿يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ .. (٩٣)﴾ [النحل] وأمثالها تمسَّك بها مَنْ ليس لهم حَظٌّ من الهداية ، يقولون : لم يُرِد الله لنا الهداية ، فماذا نفعل ؟ وما ذنبنا ؟

وهذه وقفة عقلية خاطئة ؛ لأن الوَقْفة العقلية تقتضى أنْ تذكر الشىء ومقابله ، أما هؤلاء فقد نبَّهوا العقل للتناقض فى واحدة وتركوا الأخرى ، فهى - إذن - وَقْفة تبريرية ، فالضال الذى يقول : لقد كتب الله علىَّ الضلال ، فما ذنبى ؟ لماذا لم يَقُلْ : الطائع الذى كتب الله له الهداية ، لماذا يثيبه ؟!

فلماذا تركتم الخير وناقشتم في الشر ؟

والمتأمل في الآيات التي تتحدث عن مشيئة الله في الإضلال والهداية يجد أنه سبحانه قد بيَّن مَنْ شاء أنْ يُضلَّه ، وبين مَنْ شاء أنْ يهديه ، اقرأ قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [المائدة] إذن : كُفْره سابق لعدم هدايته وقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٦﴾ ﴾ [المنافقون] وقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٠﴾ ﴾ [القصص]

إنما يهدي مَنْ آمن به ، أما هؤلاء الذين اختاروا الكفر واطمأنوا إليه وركنوا ، فإن الله تعالى يختم على قلوبهم ، فلا يدخلها الإيمان ، ولا يخرج منها الكفر ، لأنهم أحبُّوه فزادهم منه كما زاد المؤمنين إيماناً : ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى .. ﴿١٧﴾ ﴾ [محمد]

والهداية هنا بمعنى الدلالة على الخير ، وسبق أنْ ضربنا لها مثلاً ، ولله تعالى المثَل الأعلى : هَبْ أنك تسلك طريقاً لا تعرفه ، فتوقفتَ عند جندي المرور وسألته عن وجهتك فدلَّكَ عليها ، ووصف لك الطريق الموصِّل إليها . لكن ، هل دلالته لك تُلزمك أنْ تسلك الطريق الذي وُصف لك ؟

بالطبع أنت حُرٌّ تسير فيه أو في غيره . فإذا ما حفظتَ لرجل المرور جميلَهُ وشكرته عليه ، ولمس هو فيك الخير ، فإنه يُعينك بنفسه على عقبات الطريق ، وربما ركب معك ليجتاز بك منطقة خطرة يخاف عليك منها . هذا معنى : ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴿١٧﴾ ﴾ [محمد]

أما لو تعاليتَ على هذا الرجل ، أو اتهمته بعدم المعرفة بمسالك الطرق ، فإنه يدعُكَ وشأنك ، ويضنُّ عليك بمجرد النصيحة .

وهكذا .. الحق ـ سبحانه وتعالى ـ دَلَّ المؤمن ودَلَّ الكافر على الخير ، المؤمن رضى بالله وقَبِل أمره ونَهْيه ، وحمد الله على هذه النعمة ، فزاده إيماناً وأعانه على مشقة العبادة ، وجعل له نوراً يسير على هَدْيه ، أما الكافر فقد تركه يتخبَّط فى ظلمات كفره ، ويتردد فى متاهات العمى والضلال .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ(1) وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾ ﴾

هذه فئات ست أخبر الله عنها بقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ .. ﴿١٧﴾ ﴾ [الحج] ومعنى الفصل بينهم أن بينهم خلافاً ومعركة ، ولو تتبعتَ الآيات التى ذكرت هذه الفئات تجد أن هناك آيتين فى البقرة وفى المائدة .

يقول تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ [البقرة]

وفى المائدة يُقدِّم الصابئين على النصارى ، وفى هذا الموضع تأتى بالرفع بالواو ، يقول تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا

---

(1) صبأ يصبأ : خرج من دين إلى دين . والصابئون يزعمون أنهم على دين نوح عليه السلام . وقيل : هم عباد الملائكة . وقيل : عباد الكواكب والنجوم وقيل : عُبَّاد النار . [ القاموس القويم ١/٣٦٥ ] .

وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَىٰ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٩) ﴾ [المائدة]

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا .. (١٧) ﴾ [ الحج ] أى : بمحمد ﷺ ، ﴿ وَالَّذِينَ هَادُوا .. (١٧) ﴾ [الحج] أى : اليهود ، ثم النصارى وهما قبل الإسلام ، أما الصابئون : فهؤلاء جماعة كانوا على دين إبراهيم عليه السلام ، ثم عبدوا الكواكب فَسُمُّوا الصابئة لخروجهم عن الدين الحق . أما المجوس : فهم عبدة النار ، والذين أشركوا : هم المشركون عَبَدة الأصنام والأوثان .

أما التقديم والتأخير بين النصارى والصابئين ، قالوا : لأن النصارى فرقة كبيرة معروفة ولهم نبى ، أما الصابئة فكانوا جماعة خرجوا على نبيهم وخالفوه وأتَوْا بعقيدة غير عقيدته ، فهم قلَّة ، لكن سبقوا النصارى فى الترتيب الزمنى ؛ لذلك حين يراعى السَّبْق الزمنى يقول : ﴿ الصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَىٰ .. (١٧) ﴾ [الحج] ، وحين يراعى الكثرة والشهرة ، يقول : ﴿ النَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ .. (٦٢) ﴾ [البقرة] فكلٌّ من التقديم أو التأخير مُراد لمعنى مُعيَّن .

أما قوله : ﴿ وَالصَّابِئُونَ .. (٦٩) ﴾ [المائدة] بالرفع على خلاف القاعدة فى العطف ، حيث عطفت على منصوب ، والمعطوف تابع للمعطوف عليه فى إعرابه ، فلماذا وسَّط مرفوعاً بين منصوبات ؟

قالوا : لا يتم الرفع بين المنصوبات إلا بعد تمام الجملة ، فكأنه قال : إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى ، والصابئون كذلك ، فعطف هنا جملة تامة ، فهى مُؤخَّرة فى المعنى ، مُقدَّمة فى اللفظ ، وهكذا تشمل الآية التقديم والتأخير السابق .

لكن ، كيف ينشأ الخلاف بين الأديان ؟

ينشـأ الخلاف من أن قومـاً يؤمنون بإله ويؤمنون بالنبى المبلِّغ عن هذا الإله ، لكنهم يختلفـون على أشيـاء فيـمـا بينهم ، كمـا نرى الخـلاف مثـلاً بين المـعـتزلة وأهل السنة ، أو الجبـرية والقـدرية ، فجماعة تثبت الصفات ، وآخرون يُنكرونها ، جماعة يقولون : الإنسان مُجْبَر فى تصرفاته ، وآخرون يقولون : بل هو مختار .

وقـد ينشأ الخـلاف بين الأديان للاخـتـلاف فى النبوات ، فـأهل الديانات يؤمنون بالإله الفـاعل المـختـار ، لكن يختلفـون فى الأنبيـاء موسى وعيسى ومـحمد مع أنهم جميعاً حَقٌّ . وقد ينشأ الخلاف من الادعاء ، كالذين يدَّعُون النبوة كهؤلاء الذين يعبدون النار ، أو يعبدون بوذا مثلاً .

فهذه ست طوائف مـختلفة ذكرتهم الآية ، فما حكم هؤلاء جـميعاً بعد بعثة محمد ﷺ ؟

نقول : أما المشركون الذين عـبدوا الأصنام ، وكذلك الذين عبدوا النبوة المدَّعاة ، فـهؤلاء كفار ضائعون . أما الـيهود والنصارى الذين يؤمنون بإله فـاعل مخـتار ، ويؤمنون بنبـوة صادقـة ، فشأنهـم بعد ظهـور الإسـلام ، أن الله تعـالى أقـام لنا تصـفـية آخـر الأمـر لهـذه الديانات ، فـمَنْ كان يهـودياً قبل الإسـلام ، ومَنْ كان نصـرانياً قـبل الإسلام ، فإن الله أجْـرى لهم تصفية عقدية هى الإسـلام ، فإنْ كانوا مؤمنين الإيمان الأول بـالله تعالى فعليهم أنْ يبدأوا من جـديد مؤمنين مسلمين .

لذلك قال بعدها : ﴿ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ [البقرة]

فبـعد ظهـور الإسلام بدأت لهـؤلاء جمـيعـاً ـ اليهود والـنصارى

والمجوس والمشركين ـ حياة جديدة ، وفُتحَتْ لهم صفحة جديدة هم فيها أولاد اليوم ، حيث لزمهم جميعاً الإيمان بالله تعالى والإيمان بنبيه محمد ﷺ ، وكأن الإسلام تصفية ( وأوكازيون إيمانى ) يجُبُّ ما قبله ، وعفا الله عما سلف .

والحق ـ سبحانه ـ حينما تكلم عن الأجيال السابقة لنبوة محمد ﷺ . قال : ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي[1] قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ (٨١)﴾ [آل عمران]

لذلك نبَّه كُلٌّ من موسى وعيسى ـ عليهما السلام ـ بوجود محمد ﷺ وبشَّروا به ، بدليل قول الله تعالى : ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ .. (٨٩)﴾ [البقرة] والمراد اليهود والنصارى .

وقد جاء محمد ﷺ رحمة للعالمين ، وجامعاً للأديان كلها فى الإسلام الذى زاد عليها ما زاد مما تقتضيه أمور الحياة وتطورات العصر ، إلى أن تقوم الساعة .

جاء الإسلام تصفيةً لهؤلاء ، استأنفوها بإيمان ، واستأنفوها بعمل صالح ، فكان لهم أجرهم كاملاً عند ربهم لا يطعن فيهم دينهم السابق ، ولا عقائدهم الفاسدة الكافرة .

أما إنْ حدث خلاف حول النبوات كما تذكر الآية التى نحن بصددها : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (١٧)﴾ [الحج] والفَصْل أن نعرف مَن المحقُّ ومَن المبطل ، وهكذا جمعتْ

---

(١) الإصر : العهد والعقد والميثاق . [ لسان العرب ـ مادة : أصر ] .

الآيات بين حالة الاتفاق وحالة الاختلاف وبيَّنَتْ جزاء كل منهما .

فالفصل إما فصل أماكن ، وإما فصل جزاءات ، قالوا : بالطبع فالحكم بينهم : هذا مُحقٌّ وهذا مُبطل سيؤدى إلى اختلاف الأماكن واختلاف الجزاءات .

وقوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (١٧)﴾ [الحج] لأن الله تعالى هو الحكَم الذى يفصل بين عباده ، والحكم يحتاج إما إلى بينة أو شهود ، والشهود لا بُدَّ أن يكونوا عُدولاً ، ولا يتحقق العدل فى الشهادة إلا بدين يمنع الإنسان أنْ يميل عن الحق ، فإن كان الحكم هو الله فلا حاجة لبيِّنة ، ولا حاجةَ لشهود ؛ لأنه سبحانه يحيط علمه بكل بشىء ، ولا يعزب عن علمه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض .

ومن العجيب أن الحُكْم والفَصْل من الحق سبحانه يشمل كل السلطات : التشريعية والقضائية والتنفيذية ، فحُكْمه سبحانه لا يُؤجَّل ولا يُتحَايل عليه ، ولا تضيع فيه الحقوق كما تضيع فى سراديب وأدراج المحاكم .

أما حُكْم البشر فينفصل فيه التشريع عن القضاء عن التنفيذ ، فربما صدر الحكم وتعطَّل تنفيذه ، أما حكم الله فنافذ لا يُؤجِّله شىء .

إذن : المسألة لن تمرَّ هكذا ، بل هى محسوبة لك أو عليك .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ۩ (١٨)﴾

قوله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ .. ⑱﴾ [الحج] يعنى : ألم تعلم ؛ لأن السجود من هذه الأشياء سجود على حقيقته كما نعلمه فى السجود من أنفسنا ، ولكل جنس من أجناس الكون سجود يناسبه .

وسبق أن تحدثنا عن أجناس الكون وهى أربعة : أدناها الجماد ، ثم يليه النبات ، حيث يزيد عليه خاصية النمو وخاصية الحركة ، ثم يليه الحيوان الذى يزيد خاصية الإحساس ، ثم يليه الإنسان ويزيد عليه خاصية الفكر والاختيار بين البدائل .

وكل جنس من هذه الأجناس يخدم ما هو أعلى منه ، حيث تنتهى هذه الدائرة بأن كل مَا فى كون الله مُسخَّر لخدمة الإنسان ، وفى الخبر : « يا ابن آدم خلقتُ الأشياء من أجلك ، وخلقتُكَ من أجلى ، فلا تشتغل بما هو لك عَمَّنْ أنت له »[1] .

فكان على الإنسان أن يفكر فى هذه الميْزة التى منحه ربه إياها ، ويعلم أن كل شىء فى الوجود مهما صَغُر فله مهمة يؤديها ، ودَوْر يقوم به . فأَوْلَى بك أيها الإنسان وأنت سيد هذا الكون أن يكون لك مهمة ، وأن يكون لك دور فى الحياة فلستَ بأقلَّ من هذه المخلوقات التى سخَّرها الله لك ، وإلاَّ صِرْت أقلَّ منها وأدنى .

إن كانت مهمة جميع المخلوقات أنْ تخدمك لأنك أعلى منها ، فانظر إلى مهمتك لمَنْ هو أعلى منك ، فإذا جاءك رسول من أعلى منك ليُنبِّهك إلى هذه المهمة كان عليك أن تشكره ؛ لأنه نبَّهك إلى ما ينبغى لك أن تشتغل به ، وإلى مَنْ يجب عليك الاتصال به دائماً ؛ لذلك فالرسول لا يصح أن تنصرف عنه أبداً ؛ لأنه يُوضِّح لك مسائل كثيرة هى مَحَلٌّ للبحث العقلى .

---

(١) قال ابن كثير فى تفسيره (٢٣٨/٤) : « ورد فى بعض الكتب الإلهية : يقول الله تعالى : ابن آدم خلقتك لعبادتى فلا تلعب ، وتكفلت برزقك فلا تتعب ، فاطلبنى تجدنى ، فإن وجدتنى وجدت كل شىء ، وإن فُتُّك فاتك كل شىء ، وأنا أحبّ إليك من كل شىء » وقد أخرج أحمد فى مسنده (٣٥٨/٢) عن أبى هريرة رفعه « قال الله : ابن آدم تفرغ لعبادتى أملأ صدرك غنًى وأسد فقرك وإلا تفعل ملأتُ صدرك شغلاً ولم أسدّ فقرك » .

وكان على العقل البشرى أن يفكر فى كل هذه الأجناس التى تخدمه : ألكَ قدرة عليها ؟ لقد خدمتْكَ منذ صغَرك قبل أنْ تُوجِّه إليها أمراً ، وقبل أنْ توجدَ عندك القدرة لتأمر أوَ لتتناول هذه الأشياء ، كان عليك أنْ تتنبه إلى القوة الأعلى منك ومن هذه المخلوقات ، القوة التى سخَّرَتْ الكون كله لخدمتك ، وهذا بَحْث طبيعى لا بُدَّ أن يكون .

هذه الأشياء فى خدمتها لك لم تتأبَّ عليك ، ولم تتخلف يوماً عن خدمتك ، انظر إلى الشمس والقمر وغيرهما : أقالت الشمس يوماً : إن هؤلاء القوم لا يستحقون المعروف ، فلن أطلع عليهم اليوم ؟!

الأرض : هل ضنَّتْ فى يوم على زارعها ؟ الريح : هل توقفتْ عن الهبوب . وكلها مخلوقات أقوى منك ، ولا قدرةَ لك عليها ، ولا تستطيع تسخيرها ، إنما هى فى قبضة الله ـ عز وجل ـ ومُسخَّرة لك بأمره سبحانه ، ولأنها مُسخَّرة فلا تتخلف أبداً عن أداء مهمتها .

أما الإنسان فيأتى منه الفساد ، ويأتى منه الخروج عن الطاعة لما منحه الله من منطقة الاختيار .

البعض يقول عن سجود هذه المخلوقات أنه سجود دلالة ، لا سجوداً على حقيقته ، لكن هذا القول يعارضه قول الله تعالى :
﴿ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ .. (٤١) ﴾ [النور]

فلكل مخلوق مهما صَغُر صلاة وتسبيح وسجود ، يتناسب وطبيعته ، إنك لو تأملت سجود الإنسان بجبهته على الأرض لوجدتَ اختلافاً بين الناس باختلاف الأحوال ، وهم نوع واحد ، فسجود الصحيح غير سجود المريض الذى يسجد وهو على الفراش ، أو جالس على مقعد ، وربما يشير بعينه ، أو أصبعه للدلالة على السجود ، فإن لم يستطع أجرى السجود على خاطره .

فإذا كان السجود يختلف بهذه الصورة فى الجنس الواحد حَسْب حاله وقدرته وطاقته ، فلماذا نستبعد أن يكون لكل جنس سجوده الخاص به ، والذى يتناسب مع طبيعته ؟

وإذا كان هذا حال السجود فى الإنسان ، فهل ننتظر مثلاً أن نرى سجود الشمس أو سجود القمر ؟! ما دام الحق ـ سبحانه وتعالى ـ قال إنها تسجد ، فلا بُدَّ أن نؤمن بسجودها ، لكن على هيئة لا يعلمها إلا خالقها عز وجل .

بالله ، لو جلس مريض يصلى على مقعد أو على الفراش ، أتعرف وهو أمامك أنه يسجد ؟ إذن : كيف نطمع فى معرفة كيفية سجود هذه المخلوقات ؟

ومن معانى السجود : الخضوع والطاعة ، فمَنْ يستبعد أن يكون سجود هذه المخلوقات سجوداً على الحقيقة ، فليعتبر السجود هنا للخضوع والانقياد والطاعة ، كما تقول على إنسان متكبر : جاء ساجداً يعني : خاضعاً ذليلاً ، ومنه قوله تعالى : ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾﴾ [فصلت]

إذن : لك أن تفهم السجود على أىِّ هذه المعانى تحب ، فلن تخرج عن مراده سبحانه ، ومن رحمة الله أنْ جعل هذه المخلوقات خاضعة لإرادته ، لا تنحلّ عنها أبداً ولا تتخلف ، كما قال سبحانه : ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾﴾ [الأحزاب]

ونحن نتناقل الآن ، ونروى بعض حوارات السالكين وأهل المعرفة وأصحاب الفيوضات الذين فهموا عن الله وتذوّقوا لذّة قُرْبه ، وكانوا يتحاورون

ويتنافسون لا للمباهاة والافتخار ، إنما للترقى فى القرب من الله .

جلس اثنان من هؤلاء العارفين وفى فَم أحدهم نَخْمة يريد أنْ يبصقها ، وبدتْ عليه الحيرة ، وهو ينظر هنا وهناك فقال له صاحبه: ألْقها واسترح ، فقال : كيف وكلما أردتُ أنْ أبصقها سمعت الأرض تُسَبِّح فاستحيْتُ أنْ ألقيها على مُسبِّح ، فقال الآخر - ويبدو أنه كان فى منزلة أعلى منه - وقد افتعل البَصْق وقال : مُسبِّح فى مُسبِّح .

إذن : فأهل الكشف والعارفون بالله يدركون هذا التسبيح ، ويعترفون به ، وعلى قدر ما لديك من معرفة بالله ، وما لديك من فَهْم وإدراك يكون تلقِّيك وتقبُّلك لمثل هذه الأمور الإيمانية .

والحق - سبحانه وتعالى - حين قال : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ .. (١٨)﴾ [الحج] معلوم أن مَنْ فى السموات هم الملائكة ولسْنا منهم ، لكن نحن من أهل الأرض ويشملنا حكم السجود وندخل فى مدلوله ، فلماذا قال بعدها : ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ .. (١٨)﴾ [الحج] ؟

كلمة : ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ .. (١٨)﴾ [الحج] تُبيِّن أن لنا قهريةً وتسخيراً وسجوداً كباقى أجناس الكون ، ولنا أيضاً منطقة اختيار . فالكافر الذى يتعوَّد التمرُّد على خالقه : يأمره بالإيمان فيكفر ، ويأمره بالطاعة فيعصى ، فلماذا لا يتمرد على طول الخط ؟ لماذا لا يرفض المرض إنْ أمرضه الله ؟ ولماذا لا يرفض الموت إنْ حَلَّ به ؟

إذن : الإنسان مُؤتمر بأمر الله مثل الشجر والحجر والحيوان ، ومنطقة الاختيار هى التى نشأ عنها هذا الانقسام : كثير آمن ، وكثير حَقَّ عليه العذاب .

لكن ، لماذا لم يجعل الله - سبحانه وتعالى - الخَلْق جميعاً مُسخَّرين ؟

قالوا : لأن صفة التسخير وعدم الخروج عن مرادات الله تثبت لله تعالى صفة القدرة على الكل ، إنما لا تُثبت لله المحبوبية ، المحبوبية لا تكون إلا مع الاختيار : أن تكون حُراً مختاراً فى أنْ تُؤمنَ أو تكفر فتختار الإيمان ، وأنْ تكون حُراً وقادراً على المعصية ، لكنك تطيع .

وضربنا لذلك مثلاً - ولله المثل الأعلى - : هَبْ أن عندك عبدين ، تربط أحدهما إليك فى سلسلة مثلاً ، وتترك الآخر حُراً ، فإنْ ناديتَ عليهما أجاباك ، فأيهما يكون أطْوعَ لك : المقهور المجبر ، أم الحر الطليق ؟ .

إذن : التسخير والقهر يُثبت القدرة ، والاختيار يُثبت المحبة .

والخلاف الذى حدث من الناس ، فكثير منهم آمن ، وكثير منهم حَقَّ عليه العذاب ، من أين هذا الاختلاف يا رب ؟ مما خلقتُه فيك من اختيار ، فمَنْ شاء فليؤمن ، ومن شاء فليكفر ، فكأن كفر الكافر واختياره ؛ لأن الله سَخَّره للاختيار ، فهو حتى فى اختياره مُسخَّر .

أما قوله تعالى : ﴿ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ .. ﴿١٨﴾ ﴾ [الحج] يعنى : باختياراتهم ، وكان المفروض أن يقول فى مقابلها : وقليل ، لكن هؤلاء كثير ، وهؤلاء كثير أيضاً .

ومعنى : ﴿ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ .. ﴿١٨﴾ ﴾ [الحج] حقَّ : يعنى ثبتَ ، فهذا أمر لا بُدَّ منه ، حتى لا يستوى المؤمن والكافر : ﴿ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [القلم] إذن : لا بُدَّ أنْ يعاقب هؤلاء ، والحق يقتضى ذلك .

وقوله سبحانه : ﴿ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا

يَشَاءُ (١٨)﴾ [الحج] لأن أحقيَّة العذاب من مُساوٍ لك . قد يأتي مَنْ هو أقوى منه فيمنعه ، أو يأتي شافع يشفع له ، وكأن الحق - سبحانه وتعالى - يُيئِّسُ هؤلاء من النجاة من عذابه ، فلن يمنعهم أحد .

فمَنْ أراد الله إهانته فلن يُكرمه أحد ، لا بنُصْرته ولا بالشفاعة له ، فالمعنى : ﴿وَمَن يُهِنِ اللَّهُ .. (١٨)﴾ [الحج] أي : بالعذاب الذي حَقَّ عليه وثبت ﴿فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ .. (١٨)﴾ [الحج] يعني : يكرمه ويُخلِّصه من هذا العذاب ، كذلك لا يوجد مَنْ يُعزه ؛ لأن عزَّته لا تكون إلا قَهْراً عن الله ، وهذا مُحَال ، أو يكون بشافع يشفع له عند الله ، ولا يشفع أحد عند الله إلا بإذنه سبحانه .

لذلك ، نقول : إن الحق سبحانه يُجير على خَلْقه ولا يُجَار عليه ، يعني : لا أحد يقول لله : هذا في جواري ؛ لذلك ذيَّلَ الآية بقوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ (١٨)﴾ [الحج]

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى[1]:

﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ ۖ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ (١٩)﴾

كلمة خَصْم من الألفاظ التي يستوي فيها المفرد والمثنى

---

(١) سبب نزول الآية : عن أبي ذر - رضي الله عنه - أنه كان يقسم قسماً ، إن هذه الآية ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ .. (١٩)﴾ [الحج] نزلت في الثلاثة والثلاثة الذين تبارزوا يوم بدر ، وهم : حمزة بن عبد المطلب ، وعبيدة بن الحارث ، وعلي بن أبي طالب ، وعتبة وشيبة ابنا ربيعة ، والوليد بن عتبة . قال علي رضي الله عنه : أنا أول من يجثو في الخصومة على ركبتيه بين يدي الله يوم القيامة . أورده الواحدي في أسباب النزول ( ص ١٧٦ ) ، والدر المنثور للسيوطي ( ١٨/٦ ) وعزاه للبخاري ومسلم وغيرهما .

والجمع ، وكذلك المذكر والمؤنث كما فى قوله تعالى ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾﴾ [ص]

ويقول تعالى : ﴿خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ .. ﴿٢٢﴾﴾ [ص]

والمراد بقوله : ﴿خَصْمَانِ .. ﴿١٩﴾﴾ [الحج] قوله تعالى : ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ .. ﴿١٨﴾﴾ [الحج] والخصومة تحتاج إلى فَصْل بين المتخاصمين ، والفَصْل يحتاج إلى شهود ، لكن إنْ جاء الفَصْل من الله تعالى فلن يحتاج إلى شهود ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾﴾ [النساء]

وإنْ جاء عليهم بشهود من أنفسهم ، فإنما لإقامة الحجة ولتقريعهم ، يقول تعالى : ﴿وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ .. ﴿٢١﴾﴾ [فصلت]

فإنْ قلتَ : كيف تشهد الجوارح على صاحبها يوم القيامة وهى التى فعلت ؟

نقول : هناك فَرْق بين عمل أريده وعمل أؤديه ، وأنا أبغضه وضربنا لذلك مثلاً - ولله المثل الأعلى - بالقائد الذى يأمر جنوده ، وعليهم أنْ يُطيعوه حتى إنْ كانت الأوامر خاطئة ، فإنْ رجعوا إلى القائد الأعلى حكَوْا له مَا كان من قائدهم ؛ ذلك لأن القائد الأعلى جعل له ولاية عليهم ، وألزمهم طاعته والائتمار بأمره .

فالخالق - عز وجل - جعل لإرادة الإنسان ولاية على جوارحه ، فالفعل - إذن - للإرادة ، وما الجوارح إلا أداة للتنفيذ . فحينما تريد مثلاً أنْ تقوم ، مجرد أن تريد ذلك تجد نفسك قائماً دون أنْ تفكر فى حركة القيام أو العضلات التى تحركتْ لتؤدى هذا العمل ، مع أنها

عملية مُعقَّدة تتضافر فيها الإرادة والعقل والأعصاب والأعضاء ، وأنت نفسك لا تشعر بشيء من هذا كله ، وهل فى قيامك أمرتَ الجوارح أنْ تتحرَّك فتحركتْ ؟

فإذا كانت جوارحك تنفعل لك وتطاوعك لمجرد الإرادة ، أفلا يكون أولْى من هذا أنْ ينفعل خَلْق الله لإرادة الله ؟

إذن : العمدة فى الأفعال ليستْ الجوارح وإنما الإرادة ، بدليل أن الله تعالى إذا أراد أنْ يُعطِّل جارحة من الجوارح عطَّل الإرادة الآمرة ، وقطعها عن الجارحة ، فإذا هى مشلولة لا حركةَ فيها ، فإنْ أراد الإنسان تحريكها بعد ذلك فلن يستطيع ، لماذا ؟

لأنه لا يعلم الأبعاض التى تُحرِّك هذه الجارحة ، ولو سألتَ أعلم الناس فى علم الحركة والذين صنعوا الإنسان الآلى : ما الحركة الآلية التى تتم فى جسم الإنسان كى يقوم من نومه أو من جِلْسته ؟ ولن يستطيع أحد أنْ يصفَ لك ما يتم بداخل الجسم فى هذه المسألة .

أما لو نظرتَ مثلاً إلى الحفَّار ، وهو يُؤدِّى حركات أشبه بحركات الجسم البشرى لوجدتَ صبياً يشغله باستخدام بعض الأزرار ، ويستطيع أنْ يصفَ لك كل حركة فيه ، وما الآلات التى تشترك فى كل حركة . فَقُلْ لى بالله : ما الزر الذى تضغط عليه لتحرك يدك أو ذراعك ؟ ما الزر الذى تُحرِّك به عينيك ، أو لسانك ، أو قدمك ؟ إنها مجرد إرادة منك فينفعل لك ما تريد ؛ لأن الله تعالى خلقك ، وجعل لإرادتك السيطرة الكاملة على جوارحك ، فلا تستبعد أنْ تنفعل المخلوقات لله - عز وجل - إنْ أراد منها أنْ تفعلَ .

حتى العذاب فى الآخرة ليس لهذه الجوارح والأبعاض ، إنما العذاب للنفس الواعية ، بدليل أن الإنسان إذا تعرَّض لألم شديد

لا يستريح منه إلا أنْ ينام ، فإذا استيقظ عاوده الألم ، إذن : فالنفس هى التى تألم وتتعذَّب لا الجوارح .

والحق سبحانه هو الذى يفصل بين هذيْن الخصميْن ، كما قال سبحانه فى آية أخرى ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ .. ⑰﴾ [الحج]

لذلك يقول الإمام على رضى الله عنه وكرَّم الله وجهه[(1)]: أنا أول مَنْ يجثو بين يدى الله يوم القيامة للفصل ومعى عبيدة بن الحارث وحمزة بن عبد المطلب . هؤلاء فى جانب وفى الجانب المقابل : عتبة ابن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، والوليد بن عتبة .

لماذا ؟لأن بين هؤلاء كانت أول معركة فى الإسلام ، وهذه أول خصومة وقعتْ فيه ، ذلك لأنهم فى معركة بدر أخرج رسول الله ﷺ قوماً للمبارزة ، وكانت عادتهم فى الحروب أنْ يخرج أقوياء القوم وأبطالهم للمبارزة بدل أنْ يُعذِّبوا القوم ويشركوا الجميع فى القتال ، ويُعرِّضوا أرواح الناس جميعاً للخطر .

ومن ذلك ما حدث بين على ومعاوية - رضى الله عنهما - فى موقعة صفِّين حيث قال على لمعاوية : ابرز إلىَّ يا معاويةُ ، فإنْ غلبتنى فالأمر لك ، وإنْ غلبتُك فاجعل الأمر لى ، فقال عمرو بن العاص وكان فى صفوف معاوية : والله ، يا معاوية لقد أنصفك الرجل ، وفى هذا حَقْنٌ لدماء المسلمين فى الجانبين .

فنظر معاوية إلى عمرو وقال : والله يا عمرو ما أردْتَ إلا أن أبرز

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه ( ٤٧٤٤ ) قال : « أنا أول من يجثو بين يدى الرحمن للخصومة يوم القيامة » قال قيس بن عباد : وفيهم نزلت ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ .. ⑲﴾ [الحج] قال : هم الذين بارزوا يوم بدر : على وحمزة وعبيدة وشيبة بن ربيعة وعتبة بن ربيعة والوليد بن عتبة .

له فيقتلني ، ويكون لك الأمر من بعدي ، وما دُمْتَ قد قلتَ ما قلتَ فلا يبارزه غيرك فاخرج إليه .

فقام عمرو لمبارزة علي ، لكن أين عمرو من شجاعة علي وقوته ؟ وحمل عليٌّ على عمرو حملة قوية ، فلما أحسَّ عمرو أن علياً سيضربه ضربة تميته لجأ إلى حيلة ، واستعمل دهاءه في صَرْف عليٍّ عنه ، فكشف عمرو عن عورته ، وهو يعلم تماماً أن علياً يتورع عن النظر إلى العورة ، وفعلاً تركه علي وانصرف عنه ، ونجا عمرو بحيلته هذه[1] .

وقد عبَّر الشاعر عن هذا الموقف فقال :

وَلاَ خَيْرَ في رَدِّ الرَّدَى بِدَنيَّةٍ كَما رَدَّهَا يَوْماً بِسَوْأَتِه عَمْرُو

ويقول الشريف[2] الرضي - وهو من آل البيت - في القصيدة التي مطلعها :

أَرَاكَ عَصِيَّ الدَّمْعِ شِيمَتُكَ الصَّبْر أَمَا لِلْهَوَى أَمْر عليْكَ ولاَ نَهْيُ

---

(١) ذكر ابن كثير في كتابه « البداية والنهاية » ( ٢٧٤/٤ ) أن علياً رضي الله عنه نادي : ويحك يا معاوية ، ابرز إليَّ ولا تفني العرب بيني وبينك ، فقال له عمرو بن العاص : اغتنمه فإنه قد أثخن بقتل هؤلاء الأربعة ، فقال له معاوية : والله لقد علمت أن علياً لم يقهر قط ، وإنما أردت قتلي لتصيب الخلافة من بعدي ، اذهب إليه ، فليس مثلي يُخدع . وذكروا أن علياً حمل على عمرو بن العاص يوماً فضربه بالرمح فألقاه إلى الأرض فبدت سوءته فرجع عنه ، فقال له أصحابه : مالك يا أمير المؤمنين رجعت عنه ؟ فقال : أتدرون ما هو ؟ قالوا : لا قال : هذا عمرو بن العاص تلقاني بسوءته فذكرني بالرحم فرجعت عنه ، فلما رجع عمرو إلى معاوية قال له : احمد الله واحمد إستك .

(٢) هو : محمد بن الحسين أبو الحسن الرضي العلوي الحسيني ، أشعر الطالبيين ، مولده ٣٥٩ هـ ووفاته ( ٤٠٦ هـ ) في بغداد ، انتهت إليه نقابة الأشراف في حياة والده . له « المجازات النبوية » ، « مجاز القرآن » ، « خصائص أمير المؤمنين علي بن أبي طالب » [ الأعلام للزركلي ٦ / ٩٩ ] .

بَلَى أنَا مُشْتَاقٌ وعِندِى لَوْعَةٌ ... وَلكنْ مِثْلِى لاَ يُذَاعُ لَهُ سِرٌّ

وفيها يقول :

وَإنَّا أُنَاسٌ لاَ تَوسُّطَ بَيْنَنَا ... لَنَا الصَّدْرُ دُون العَالَمينَ أو القَبْرُ

نعود إلى بدر ، حيث اعترض الكفار حينما أخرج لهم رسول الله بعض رجال الأنصار فقالوا : هؤلاء نكرات من الأنصار ، نريد أن تُخرِج لنا أكْفَاءنا من رجال قريش ، فأخرج لهم رسول الله ﷺ علياً وحمزة وعبيد بن الحارث بن عبد المطلب ، وأخرجوا هم عتبة وشيبة والوليد ، وكان ما كان من نُصْرة المسلمين وهزيمة المشركين[1] .

وهذا هو اليوم الذى قال الله فيه : ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢٣)﴾ [آل عمران]

إذن : فبدر كانت فَصْلاً دنيوياً بين هذيْن الخصْمين ، ويبقى فَصْل الآخرة الذى قال فيه الإمام على : « أنا أول مَنْ يجثو بين يدى الله يوم القيامة للفصل » .

ومعنى : ﴿اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ .. (١٩)﴾ [الحج] أى : بسبب اختلافهم فى ربهم ، ففريقٌ يؤمن بوجود إله ، وفريقٌ يُنكره ، فريق يُثبت له الصفات ، وفريق ينفى عنه هذه الصفات ، يعنى : انقسموا بين إيمان وكفر .

---

(١) ذكر ابن هشام فى « السيرة النبوية » ( ٢/٦٢٥ ) أن عتبة بن ربيعة خرج بين أخيه شيبة بن ربيعة وابنه الوليد بن عتبة ، حتى إذا فصل من الصف دعا إلى المبارزة ، فخرج إليه فتية من الأنصار ثلاثة ، وهم : عوف ، ومُعوذ ، ابنا الحارث - وأمهما عَفْراء - ورجل آخر يقال : هو عبد الله بن رواحة - فقالوا : من أنتم ؟ قالوا : رهط من الأنصار . قالوا : ما لنا بكم من حاجة . ثم نادى مناديهم : يا محمد ، أخرج إلينا أكفاءنا من قومنا ، فقال رسول الله ﷺ : قُمْ يا عبيدة بن الحارث ، وقُمْ يا حمزة وقُمْ يا على ، فلما قاموا ودنوا منهم ، قالوا : من أنتم ؟ قالوا : نعم ، أكفاء كرام ، فبارز عبيدة ، وكان أسنَّ القوم . عتبة ابن ربيعة ، وبارز حمزة شيبة بن ربيعة ، وبارز علىٌّ الوليدَ بن عتبة » .

ثم يُفصِّل القول : ﴿ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ (١٩) ﴾ [الحج]

﴿ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ .. (١٩) ﴾ [الحج] كأن النار تفصيل على قَدْر جسومهم إحكاماً للعذاب ، ومبالغةً فيه ، فليس فيها اتساع يمكن أنْ يُقلِّل من شدَّتها ، وليست فضفاضة عليهم .

ثم ﴿ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ (١٩) ﴾ [الحج] والحميم : الماء الذى بلغ منتهى الحرارة ، حتى صار هو نفسه مُحْرِقاً من شدَّة حَرِّه ، ولكَ أنْ تتصور ماءً يَغليه ربنا عز وجل !!

وهكذا يجمع الله عليهم ألوان العذاب ؛ لأن الثياب يرتديها الإنسان لتستر عورته ، وتقيه الحر والبرد ، ففيها شمول لمنفعة الجسم ، يقول تعالى : ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (١١٢) ﴾ [النحل]

فالإذاقة ليستْ فى اللباس ، إنما بشىء آخر ، واللباس يعطى الإحاطة والشمول ، لتعم الإذاقة كُلَّ أطراف البدن ، وتحكم عليه مبالغةً فى العذاب .

﴿ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ (٢٠) ﴾

قلنا : إن هذا الماء بلغ من الحرارة منتهاها ، فلم يغْلِ عند درجة الحرارة التى نعرفها ، إنما يُغليه ربه الذى لا يُطيق عذابَه أحدٌ . وأنت إذا صببتَ الماء المغلى على جسم إنسان فإنه يشوى جسمه من الخارج ، إنما لا يصل إلى داخله ، أمّا هذا الماء حين يُصَبُّ عليهم

فإنه يصـهر مـا فى بطونهم أولاً ، ثم جلودهم بعد ذلك ، فـاللهم قنا عذابك يوم تبعث عبادك .

﴿ وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ ﴾

المقامع : هى السياط التى تقـمع بها الدابة ، وتَرْدعها لتطاوعك ، أو الإنسان حـين تعاقبـه ، لكنها سياط من حـديد ، ففيـها دلالة على الذِّلّة والانكسار ، فضلاً عن العذاب .

ثم يُبيِّن الحق سبحانه مهمة هذه المقامع ، فيقول :

﴿ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾ ﴾

الحق - سبحانه وتعالى - يُصوِّر حال أهل النار وما هم فيه من العذاب ومن اليأس فى أن يُخفف عنهم ، فـإذا ما حاولوا الخروج من غَمِّ العذاب جـاءتهم هذه السياط فـأعادتهم حيث كانوا ، والإنسـان قد يتعود على نوع من العذاب فيهون عليـه الأمر ، كالمسجون مثلاً الذى يُضْـرب بالسيـاط على ظهره ، فـبعـد عدة ضـربات يفقـد الإحسـاس ولا يؤثر فيه ضَرْب بعد ذلك .

وقد أجاد المتنبى[1] فى وصف هذا المعنى حين قال :

رَمَانى الدَّهْرُ بالأَرْزَاءِ حتَّى ... كَأنِّـى فِى غِشَاءٍ مِنْ نِبَـالِ

---

(١) المتـنبى : هو أحمـد بن الحسين أبـو الطيب الكندى ، ولد ( ٣٠٣ هـ ) بالكوفة فى محلة تسمى كندة ، نـشأ بالشام ، ثم تنقل فى الـبادية يطلب الأدب وعلم العربـية ، قال الشـعر صبيـاً ، تنبأ فى بادية السماوة ، أسـره أمير حمص وسجنه حـتى تاب ورجع عن دعواه ، توفى ٣٥٤ هـ عن ٥٢ عاماً [ الأعلام للزركلى ١/١١٥ ] .

فكنتُ إذَا أَصَابتْنى سِهَامٌ تكسَّرتْ النِّصَالُ علَى النِّصَالِ

لكن أنِّى يُخفَّف عن أهل النار ، والحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ .. (٥٦) ﴾ [النساء]

ففى إعادتهم تيئيس لهم بعد أنْ طمعوا فى النجاة ، وما أشدّ اليأس بعد الطمع على النفس ؛ لذلك يقولون : لا أفجعَ من يأس مقمع ، بعد أمل مُقْمِع . كما يقول تعالى : ﴿ وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا .. (٢٩) ﴾ [الكهف] ساعة يسمعون الإغاثة يأملون ويستبشرون ، فيأتيهم اليأس فى ﴿ بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ .. (٢٩) ﴾ [الكهف]

وقوله تعالى : ﴿ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (٢٢) ﴾ [الحج] الحريق : الشىء الذى يحرق غيره لشدته .

• • •

وبعد أن تحدثتْ الآياتُ عن الكافرين ، وما حاق بهم من العذاب كان لا بُدَّ أنْ تتحدَّث عن المقابل ، عن المؤمنين ليُجرى العقلُ مقارنةً بين هذا وذاك ، فيزداد المؤمن تشبُّثاً بالإيمان ونُفْرةً من الكفر ، وكذلك الكافر ينتبه لعاقبة كُفْره فيزهد فيه ويرجع إلى الإيمان ، وهكذا ينتفع الجميع بهذه المقابلة ، وكأن الحق سبحانه وتعالى يعطينا فى آيات القرآن وفى هذه المقابلات وسائل النجاة والرحمة .

يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (٢٣) ﴾

يُبيِّن الحق سبحانه وتعالى ما أعدَّه لعباده المؤمنين حيث السكن : ﴿جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ .. (٢٣)﴾ [الحج] والزينة : ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا .. (٢٣)﴾ [الحج] واللباس : ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (٢٣)﴾ [الحج] فجمع لهم نعيم السكَن والزينة واللباس .

وفى الآخرة يُنعَّم الرجال بالحرير وبالذهب الذى حُرِّم عليهم فى الدنيا ، وهنا قد يعترض النساء ، وما النعيم فى شىء تنعَّمنا به فى الدنيا وهو الحرير والذهب ؟

نعم تتمتعْن بالحرير والذهب فى الدنيا ، أمَّا فى الآخرة فهو نوع آخر ومتعة كاملة لا يُنغِّصها شىء ، فالحلى للمرأة خالصٌ من المكدِّرات ، وباقٍ معها لا يأخذه أحد ، ولا تحتاج إلى تغييره أو بيعه ؛ لأنه يتجدد فى يدها كل يوم ، فتراه على صياغة جديدة وشكل جديد غير الذى كان عليه[1]. كما قلنا سابقاً فى قوله تعالى عن أهل الجنة : ﴿قَالُوا هَـٰذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ .. (٢٥)﴾ [البقرة]

فحسبوا أن طعام الجنة وفاكهتها كفاكهة الدنيا التى أكلوها من قبل ، فيُبيِّن لهم ربهم أنها ليستْ كفاكهة الدنيا ﴿وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا .. (٢٥)﴾ [البقرة] يعنى : أنواعاً مختلفة للصنف الواحد .

ثم يقول الحق :

﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَىٰ صِرَاطِ الْحَمِيدِ (٢٤)﴾

---

(١) أورد ابن القيم ( فى حادى الأرواح ص ١٨٩ ) عن كعب الأحبار فيما أخرجه ابن أبى الدنيا : « إن الله عز وجل ملكاً منذ يوم خلق يصوغ حلى أهل الجنة إلى أن تقوم الساعة ، لو أن قلباً من حلى أهل الجنة أخرج لذهب بضوء شعاع الشمس ، فلا تسألوا بعد هذا عن حلى أهل الجنة » .

( هُدُوا ) هداهم الله ، فالذى دلَّهم على وسائل دخول الجنة والتمتّع فيها بالسكن والزينة واللباس كذلك يهديهم الآن فى الجنة ويدلّهم على كيفية شكر المنعم على هذه النعمة ، هذا معنى : ﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ .. (٢٤)﴾ [الحج] هذا القول الطيب لخَّصته آيات أخرى ، ومنها قوله تعالى :

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُ .. (٧٤)﴾ [الزمر]

وقوله : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ .. (٣٥)﴾ [فاطر]

وقوله : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ .. (٣٤)﴾ [فاطر]

فحين يدخل أهل الجنة الجنةَ ، ويباشرون النعيم المقيم لا يملكون إلا أنْ يقولوا : الحمد لله ، كما يقول الحق سبحانه عنهم : ﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠)﴾ [يونس]

وقالوا[1] : ﴿الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ..(٢٤)﴾ [الحج] هو كلمة التوحيد : لا إله إلا الله ، فهذه الكلمة هى المعشوقة التى أتتْ بنا إلى الجنة ، والمعنى يسَع كل كلام طيب ، كما قال سبحانه : ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (٢٤)﴾ [إبراهيم]

ثم يقول تعالى : ﴿وَهُدُوا إِلَىٰ صِرَاطِ الْحَمِيدِ (٢٤)﴾ [الحج] أى : هداهم الله إلى طريق الجنة ، أو إلى الجنة ذاتها ، كما قال فى آية أخرى عن الكافرين :

---

(١) قاله ابن عباس ، قال : يريد لا إله إلا الله والحمد لله . [ تفسير القرطبى ٤٥٦٢/٦] . وقال أبو العالية : قولهم الله مولانا ولا مولى لكم . أى : فى الخصومة . وقال إسماعيل بن أبى خالد : القرآن . وقال الضحاك : الإخلاص. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : لا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله . [ الدر المنثور ٢٤/٦ ] .

﴿ وَلا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا (١٦٨) إِلاَّ طَرِيقَ جَهَنَّمَ .. (١٦٩) ﴾ [النساء]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ[(١)] وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ[(٢)] بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٢٥) ﴾

انتقلتْ بنا الآيات إلى موضوع جديد : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا .. (٢٥) ﴾ [الحج] بصيغة الماضى ، لأن الكفر وقع منهم فعلاً ﴿ وَيَصُدُّونَ .. (٢٥) ﴾ [الحج] بصيغة المضارع ، والقياس أن نقول : كفروا وصدُّوا ، لكن المسألة ليست قاعدة ولا هى عملية آلية ؛ لأن الصدَّ عن سبيل الله ناشىء عن الكفر وما يزال صدُّهم مستمراً .

ومعنى ﴿ عَن سَبِيلِ اللَّهِ .. (٢٥) ﴾ [الحج] أى : عن الجهاد ﴿ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ .. (٢٥) ﴾ [الحج] لأنهم منعوا المسلمين من دخوله ، وكان فى قبضتهم وتحت سيطرتهم ، وهذا ما حدث فعلاً فى الحديبية حينما اشتاق صحابة رسول الله إلى أداء العمرة والطواف بالبيت الذى طالت مدة حرمانهم منه ، فلما ذهبوا منعهم كفار مكة ، وصدُّوهم عن دخوله .

﴿ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ .. (٢٥) ﴾ [الحج] كلمة حرام يُستفاد منها أنه

---

(١) العاكف فيه والباد . أى : المقيم بالحرم وحوله . والباد : غير المقيم عنده من سكان البادية ، أو البلاد البعيدة عن الحرم . [ القاموس القويم ٢/٣١ ] .

(٢) الإلحاد : العدول عن الحق . أى : من يرد فى المسجد عملاً لا يرضى الله متلبساً بميل عن الحق ومتلبساً بظلم . [ القاموس القويم ٢/١٩٠ ]

مُـحرَّم أنْ تـفعل فـيـه خطأ ، أو تهـينه ، أو تعـتـدى فيـه . وكلمـة ( الحَـرَام ) وصف بهـا بعض المكان وبعض الزمـان ، وهى خـمسـة أشياء : نقـول : البيت الحرام وهو الكعبة ، والمسـجد الحرام ، والبلد الحرام ، ثم المـشعر الحرام . وهذه عـبارة عن دوائر مركز الكعـبة ، هذه أماكن ، ثم الخامس وهو زمن : الشهر الحرام الذى قال الله فيه : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ .. (٢١٧) ﴾ [البقرة]

وحُرْمة الزمـان والمكان هنا لحكمة أرادها الخالق سـبحانه ؛ لأنه رَبٌّ رحيم بخَلْقـه يريد أن يجعل لهم فرصـة لستْر كبـريائهم ، والحدّ من غـرورهم ، وكانت تنتـشر بيـن القوم الحَـروب والصراعـات التى كانت تُذْكى نارها عادات قبلية وسعـار الحرب ، حتى أن كلاً الفريقين يريد أنْ يُفنى الآخر ، وربمـا استمروا فى الحرب وهـم كارهون لها ، لكن يمنعهم كبرياؤهم من التراجع والانسحاب .

لذلك جعل الله سبحانه لهذه الأمـاكن والأزمنة حُرْمة لتكون ستاراً لهذا الكبرياء الزائف ، ولهـذه العزة البغيضة . وكل حَـدَث يحتاج إلى زمـان وإلى مكان ، فحـرَّم الله القتـال فى الأشهـر الحرم ، حـتى إذا ما استعرت بينـهم حرب جاء شهر حرام ، فأنقذ الضعـيف من قبضة القوى دون أنْ يجـرح كبرياءه ، وربمـا هَزّ رأسه قائلاً : لولا الشـهر الحرام كنت فعلتُ بهم كذا وكذا .

فهذه - إذن - رحمة من الله بعباده ، وسـتار يحميهم من شرور أنفسـهم ونزواتها ويَحْقن دماءهم .

وما أشبه كبرياءَ العرب فى هذه المسألة بكبرياء زوجيْن تخاصما على مَضَض ، ويريد كل منهم أنْ يأتى صاحبـه ، لكن يمنعه كبرياؤه أن يتنازل ، فـجلس الرجل فى غـرفـته ، وأغلـق الباب على نـفسـه ، فنظرتْ الزوجـة ، فإذا به يرفع يديه يدعو الله أنْ تُصـالحه زوجـته ،

فذهبتْ وتزيَّنَتْ له ، ثم دفعت الباب عليه وقالت - وكأن أحداً يُجبرها على الدخول - ( مُوديَّانى فين يا أم هاشم )

وكذلك ، جعل فى المكان محرماً ؛ لأن الزمن الحرام الذى حرم فيه قتال أربعة أشهر : ثلاثة سرد وواحد فرد ، الفرد هو المحرم ، والسرد هى : شوال ، وذو القعدة ، وذو الحجة .

فحرَّم أيضاً القتال فى هذه الأماكن ليعصم دماء الخَلْق أنْ تُراقَ بسبب تناحر القبائل بالغلِّ والحقْد والكبرياء والغرور .

يقول تعالى فى تحريم القتال فى البيت الحرام : ﴿وَلا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (١٩١)﴾ [البقرة]

فلعلَّهم حين تأتى شهور التحريم ، أو يأتى مكانه يستريحوا من الحرب ، فيدركوا لذة السلام وأهمية الصلح ، فيقضوا على أسباب النزاع بينهم دون حرب ، فسُعَار الحرب يجُرُّ حرباً ، ولذة السلام وراحة الأمن والشعور بهدوء الحياة يَجرُّ مَيْلاً للتصالح وفضّ مثل هذه المنازعات بالطرق السلمية .

والمتأمل فى هذه الأماكن التى حرَّمها الله يجدها على مراتب ، وكأنها دوائر مركزها بيت الله الحرام وهو الكعبة ، ثم المسجد الحرام حولها ، ثم البلد الحرام وهى مكة ، ثم المشعر الحرام الذى يأخذ جزءاً من الزمن فقط فى أيام الحج .

أما الكعبة فليست كما يظنُّ البعض أنها هذا البناء الذى نراه ، الكعبة هى المكان ، أما هذا البناء فهو المكين ، فلو نقضْتَ هذا البناء القائم الآن فمكان البناء هو البيت ، هذا مكانه إنْ نزلْتَ فى أعماق الأرض أو صعدْتَ فى طبقات السماء .

إذن : فبيت الله الحرام هو هذه البقعة من الأرض حتى السماء ، ألاَ ترى الناس يُصَلُّون فى الأدوار العليا ، وهم أعلى من هذا البناء بكثير ؟ إنهم يواجهون جَوَّ الكعبة ، لا يواجهون الكعبة ذاتها ، لماذا ؟ لأن الكعبة ممتدة فى الجو إلى ما شاء الله .

ثم يلى البيت المسجد ، وهو قطعة أرض حُكرت على المسجدية ، لكن هناك مسجد بالمكان حين تقيمه أنت ، وتجعل له بناء مثل هذا البناء الذى نتحدث فيه الآن يسمى « مسجد » بالمكان ، أو مسجد بالمكين حين يضيق علينا هذا المسجد فنخرج نصلى فى الشارع فهو فى هذه الحالة مسجد ، قالوا : ولو امتد إلى صنعاء وتواصلتْ الصفوف فكلُّه مسجد .

نعود إلى ما دار بين المسلمين والمشركين يوم الحديبية ، فقد صدَّ الكفار المسلمين عن بيت الله الحرام وهم على مَرْمى البصر منه ، فاغتاظ المسلمون لذلك ، ورأى بعضهم أن يدخل مكة عُنْوة ورَغْماً عنهم .

لكن كان لرسول الله ﷺ سرٌّ بينه وبين ربه عز وجل ، فنزل على شروطهم ، وعقد معهم صُلْحاً هو « صلح الحديبية » الذى أثار حفيظة الصحابة ، وعلى رأسهم عمر بن الخطاب ، فقال لرسول الله : يا رسول الله ، ألسنا على الحق ؟ قال ﷺ : « بلى » قال : أليسوا هم على باطل ؟ قال : « بلى » قال : فلِمَ نُعْطِى الدنيَّة فى ديننا؟[1] .

وكان من بنود هذا الصلح : إذا أسلم كافر ودخل فى صفوف

(١) أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة ( ١٤٨/٤ ) ، والبخارى فى صحيحه ( كتاب الجزية - باب ١٨ ) وكذا مسلم فى صحيحه ( كتاب الجهاد - باب ٣٤ ) وفيه « أن رسول الله ﷺ قال بعد مراجعة عمر بن الخطاب له : يا بن الخطاب ، إنى رسول الله ولن يضيعنى الله . وقال له أبو بكر : يا بن الخطاب ، إنه رسول الله ولن يضيعه الله أبداً » .

المسلمين يرده محمد ﷺ ، وإذا ذهب مسلم إليهم لا يردونه إلى المسلمين[1] .

وكان للسيدة أم المؤمنين أم سلمة ـ رضوان الله عليها ـ موقف عظيم فى هذه الشدة ، ورأى سديد ردَّ آراء الرجال إلى الرُّشْد وإلى الصواب ، وهذا مما نفخر به للمرأة فى الإسلام ، ونردّ به على المتشدِّقين بحقوق المرأة .

فلما عاد رسول الله ﷺ إلى فُسْطاطه مُغْضباً فقال لأم سلمة : « هلك المسلمون يا أم سلمة ، لقد أمرتهم فلم يمتثلوا » يعنى : أمرهم بالعودة دون أداء العمرة هذا العام .

فقالت السيدة أم المؤمنين : يا رسول الله ، إنهم مكروبون ، فقد مُنعُوا عن بيت الله وهم على مَرْأىً منه ، لكن اذهب يا رسول الله إلى ما أمرك به ربك ، فافعل فإذا رأوْك فعلْتَهُ علموا أن الأمر عزيمة ـ يعنى لا رجعةَ فيه ـ وفعلاً أخذ رسول الله بهذه النصيحة ، فذهب فحلق ، وذبح هديه وفعل الناس مثله ، وانتهت هذه المسألة[2] .

لكن قبل أنْ يعودوا إلى المدينة شاءتْ إرادة الله أنْ يخبرهم بالحكمة فى قبول رسول الله لشروط المشركين مع أنها شروط ظالمة مُجْحفة :

**أولاً :** فى هذا الصلح وهذه المعاهدة اعتراف منهم بمحمد ومكانته ومنزلته ، وأنه أصبح مساوياً لهم ، وهذا مكسب فى حَدِّ ذاته .

**ثانياً :** اتفق الطرفان على وقف القتال بينهم لعدة سنوات ، وهذه

(١) كان رأى رسول الله ﷺ فى هذا الشرط الذى اشترطته قريش ما قاله : « من أتاهم منا فأبعده الله ، ومن أتانا منهم فرددناه عليهم ، جعل الله له فرجاً ومخرجاً » أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (١٤٧/٤) ، ومسلم فى صحيحه ( كتاب الجهاد ـ باب ٣٤ ) .

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه ( ٤٥٣/٧ ) بشرح فتح البارى ـ كتاب المغازى من حديث المسور بن مخرمة . والبيهقى فى دلائل النبوة ( ١٥٠/٤ ) .

الفترة أعطتْ المسلمين فرصة كى يتفرغوا لاستقبال الوفود ونَشْر دين الله .

**ثالثاً** : كان فى إمكان رسول الله ﷺ أنْ يدخلهم مكة رَغْماً عن أهلها ، وكان فى مقدوره أن يقتلهم جميعاً ، لكن ماذا سيكون موقف المؤمنين من أهل مكة والذين يسترون إيمانهم ولا يعرفهم أحد ؟ إنهم وسط هؤلاء الكفار ، وسينالهم ما ينال الكفار ، ولو تميَّز المؤمنون من الكفار أو خرجوا فى جانب لأمكن تفاديهم .

اقرأ قوله تعالى : ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا[1] لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (٢٥)﴾ [الفتح]

ثم يقول تعالى عن المسجد الحرام : ﴿الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ .. (٢٥)﴾ [الحج] أى : جميعاً ﴿سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ .. (٢٥)﴾ [الحج] العاكف فيه يعنى : المقيم ، والباد : القادم إليه من خارج مكة ، ومعنى ﴿سَوَاءً .. (٢٥)﴾ [الحج] يعنى : هذان النوعان متساويان تماماً .

لذلك نقول للذين يحجزون الأماكن لحسابهم فى بيت الله الحرام خاصة ، وفى بيوت الله عامة : أريحوا أنفسكم ، فالمكان محجوز عند الله لمن سبق ، لا لمن وضع سجادته ، وشغل بها المكان .

وقد دَعَتْ هذه الآية : ﴿سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ .. (٢٥)﴾ [الحج]

---

(١) لو تزيلوا : لو تفرقوا . قاله عبد الرحمن بن زيد بن أسلم فيما أخرجه عنه ابن جرير الطبرى . [ ذكره السيوطى فى الدر المنثور ٧/٥٣٤ ] .

البعض لأنْ يقول : لا يجوز تأجير البيوت فى مكة ، فمَنْ أراد أن ينزل فى بيت ينزل فيه دون أجرة حتى يستوى المقيم والغريب[1] .

وهذا الرأى مردود عليه بأن البيوت مكان ومكين ، وأرض مكة كانت للجميع حين كان المكان حُراً يبنى فيه من أراد ، أمَّا بعد أن بنى بيتاً ، وسكنه أصبح مكيناً فيه ، لا يجوز لأحد دخوله إلا بإذنه وإرادته .

وقد دار حول هذه المسألة[2] نقاش بين الحنظلى[3] فى مكة والإمام الشافعى[4] ، حيث يرى الحنظلى أنه لا يجوز تأجير البيوت فى مكة ؛ لأنها حسب هذه الآية للجميع ، فردَّ عليه الشافعى رضى الله عنه : لو كان الأمر كذلك لما قال سبحانه فى المهاجرين : ﴿ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ .. ⑧ ﴾ [الحشر]

(١) قال القرطبى فى تفسيره ( ٤٥٦٤/٦ ) : « كانت دُورهم بغير أبواب حتى كثرت السرقة ، فاتخذ رجل باباً فأنكر عليه عمر وقال : أتغلق باباً فى وجه حاج بيت الله ؟ قال الرجل : إنما أردت حفظ متاعهم من السرقة ، فتركه ، فاتخذ الناس الأبواب ، وروى عن مالك أن الدور ليست كالمسجد ، ولأهلها الامتناع منها والاستبداد ، وهذا هو العمل اليوم وقال بهذا جمهور من الأئمة » .

(٢) قال ابن كثير فى تفسيره (٢١٤/٣) : « هذه المسألة هى التى اختلف فيها الشافعى وإسحاق ابن راهويه بمسجد الخيف وأحمد بن حنبل حاضر أيضاً » وذكر احتجاج كل منهما .

(٣) هو إسحاق بن راهويه أبو يعقوب الحنظلى نزيل نيسابور وعالمها ولد عام ١٦١ هـ ، وهو أحد كبار الحفاظ ، أخذ عنه أحمد والبخارى ومسلم وغيرهم ، اجتمع له الحديث والفقه والحفظ والصدق والزهد . [ الأعلام للزركلى ٢٩٢/١] وتذكرة الحفاظ للذهبى (٤٣٣/٢) .

(٤) هو : محمد بن إدريس الشافعى أبو عبد الله ، أحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة ، وإليه نسبة الشافعية كافة ، ولد عام ١٥٠ هـ فى غزة بفلسطين ، وحمل منها إلى مكة وهو ابن سنتين ، وزار بغداد مرتين ، وقصد مصر سنة ١٩٩ هـ فتوفى بها وقبره معروف فى القاهرة . له مصنفات أشهرها كتاب « الأم » ، « أحكام القرآن » [ الأعلام للزركلى ٢٦/٦ ] .

فنسب الديار إليهم . ولمَّا قال رسول الله ﷺ لما نزل مكة : « وهل ترك لنا عقيل من دار أو من ربع ؟»[1] وكونُ عقيل يبيع دُورهم بعد أن هاجروا ، فهذا دليل على ملكيتهم لها . لذلك رجع الحنظلي إلى رأى الشافعي .

هذا مع أن الآية تعنى البيت فقط ، لا مكة كلها ، فما كان الخلاف ليصل إلى مكة كلها .

ثم يقول تعالى : ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٢٥)﴾ [الحج]

الإلحاد قد يكون فى الحق الأعلى ، وهو الإلحاد فى الله عز وجل ، أما هنا فيُراد بالإلحاد : الميْل عن طريق الحقِّ ، وقوله : ﴿بِظُلْمٍ .. (٢٥)﴾ [الحج] الظلم فى شىء لا يسمو إلى درجة الكفر ، والإلحاد بظلم إنْ حدث فى بيت الله فهو أمر عظيم ؛ لأنك فى بيت ربك ( الكعبة ) .

وكان يجب عليك أن تستحى من مجرد حديث النفس بمعصية ، مجرد الإرادة هنا تُعَدُّ ذنباً ؛ لأنك فى مقام يجب أنْ تستشعر فيه الجلال والمهابة ، فكما أعطى الله لبيته مَيْزة فى مضاعفة الحسنات ، كذلك عظَّم أمر المعصية وأنت في رحاب بيته ، فتنبَّه لهذه المسألة[2] .

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه ( ١٥٨٨ ) ، وكذا مسلم فى صحيحه ( ١٣٥١ ) وتمامه « أن أسامة بن زيد قال : يا رسول الله ، أين تنزل ؟ فى دارك بمكة ؟ قال : وهل ترك عقيل من رباع أو دور ؟ وكان عقيل ورث أبا طالب هو وطالب ، ولم يرثه جعفر ولا على رضى الله عنهما شيئاً . لأنهما كانا مسلمين ، وكان عقيل وطالب كافرين » .

(٢) قال ابن مسعود : من هم بخطيئة فلم يعملها - فى سوى البيت - لم تكتب عليه حتى يعملها ، ومن هم بخطيئة فى البيت لم يمته الله من الدنيا حتى يذيقه من عذاب أليم . أخرجه سعيد بن منصور والطبرانى فيما أورده السيوطى فى الدر المنثور ( ٦/٢٦ ) .

حتى فى أمثال أهل الريف يقولون : ( تيجى فى بيت العالم وتسكر ) يعنى : السُّكْر يُتصوَّر فى بيت أحد العصاة ، فى بيت فاسق ، فى خمارة ، لكن فى بيت عالم ، فهذا شىء كبير ، وجرأة عظيمة . لماذا ؟

فللمكان حُرْمة بحُرْمة صاحبه ، فإذا كان للمكان حُرْمة بحُرْمة صاحبه ، والبيت منسوب إلى الله ، فأنت تعصى ربك فى عُقْر داره ، وأىّ جرأة أعظم من الجرأة على الله ؟

وهذه خاصية للمسجد الحرام ، فكُلُّ المساجد فى أى مكان بيوت الله ، لكن هناك فَرْق بين بيت الله باختيار الله ، وبيت الله باختيار عباد الله ؛ لذلك جُعل بيتُ الله باختيار الله ( البيت الحرام ) هو القبْلة التى تتجه إليها كل بيوت الله فى الأرض .

فما عاقبة الإلحاد فى بيت الله ؟ ﴿نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾ [الحج] إنهم سيذوقون العذاب بأمر من الحق دائماً وأبداً ، والإذاقة أشد الإدراكات تأثيراً ، وذلك هو العذاب المهين ، والذوق هو الإحساس بالمطعوم شراباً كان أو طعاماً ، إلا أنه تعدى كل مُحسٍّ به ، ولو لم يكن مطعوماً أو مشروباً ، ويقول ربنا عز وجل : ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾﴾ [الدخان]

أى : ذق الإهانة والمذلة ، لا مما يُطعم أو مما يُشرب ، ولكن بالإحساس ، فالإذاقة تتعدى إلى كل البدن ، فالأنامل تذوق ، والرِّجْل تذوق ، والصدر يذوق ، والرقبة تذوق . وهذا اللون من إذاقة الذل والإهانة فى الدنيا لهؤلاء مجرد نموذج بسيط لشدة عقاب الله .

وعذاب الآخرة سيكون مهولاً ، والعذاب هو إيلام الحس . إذا أحببت أن تديم ألمه ، فأبْقِ فيه آلة الإحساس بالألم .

﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾ ﴾

ما دام الكلام السابق كان حول البيت الحرام ، فمن المناسب أنْ يتكلم عن تاريخه وبنائه ، فقال سبحانه : ﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لاَّ تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿٢٦﴾ ﴾ [الحج] معنى بَوَّأه : أى : جعله مَبَاءةً يعنى : يذهب لعمله ومصالحه ، ثم يبوء إليه ويعود ، كالبيت للإنسان يرجع إليه ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ .. ﴿٦١﴾ ﴾ [البقرة]

وإذ : ظرف زمان لحدث يأتى بعده الإخبار بهذا الحدث ، والمعنى خطاب لرسول الله ﷺ : اذكر يا محمد الوقت الذى قيل فيه لإبراهيم كذا وكذا . وهكذا فى كل آيات القرآن تأتى ( إذ ) فى خطاب لرسول الله ﷺ بحدث وقع فى ذلك الظرف .

لكن ، ما علاقة المباءة أو المكان المتبوأ بمسألة البيت ؟ قالوا : لأن المكان المتبوأ بقعة من الأرض يختارها الإنسان ؛ ليرجع إليها من متاعب حياته ، ولا يختار الإنسان مثل هذا المكان إلا توفرتْ فيه كل مُقوِّمات الحياة .

لذلك يقول تعالى فى قصة يوسف عليه السلام : ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ .. ﴿٥٦﴾ ﴾ [يوسف]

وقال فى شأن بنى إسرائيل : ﴿ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ .. ﴿٩٣﴾ ﴾ [يونس] فمعنى : ﴿ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ .. ﴿٢٦﴾ ﴾ [الحج]

أى : جعلناه مبَاءة له ، يرجع إليه من حركة حياته بعد أنْ أعلمنَاهُ ، ودلَلْنَاه على مكانه(١) .

وقلنا : إن المكان غير المكين ، المكان هو البقعة التى يقع فيها ويحلُّ بها المكين ، فأرض هذا المسجد مكان ، والبناء القائم على هذه الأرض يُسمَّى « مكين فى هذا المكان » . وعلى هذا فقد دلَّ الله إبراهيم عليه السلام على المكان الذى سيأمره بإقامة البيت عليه .

وقد كان للعلماء كلام طويل حول هذه المسألة : فبعضهم يذهب إلى أن إبراهيم عليه السلام هو أول مَنْ بنى البيت . ونقول لأصحاب هذا الرأى : الحق ـ تبارك وتعالى ـ بوأ لإبراهيم مكان البيت ، يعنى : بيَّنه له ؛ كان البيت كان موجوداً ، بدليل أن الله تعالى يقول فى القصة على لسان إبراهيم : ﴿إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ .. (٣٧)﴾ [إبراهيم]

وفى قوله تعالى : ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ .. (١٢٧)﴾ [البقرة]

ومعلوم أن إسماعيل قد شارك أباه وساعده فى البناء لما شَبَّ ، وأصبح لديه القدرة على معاونة أبيه ، أمَّا مسألة السكن فكانت وإسماعيل ما يزال رضيعاً ، وقوله تعالى : ﴿عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ .. (٣٧)﴾ [إبراهيم] يدل على أن العنْدية موجودة قبل أنْ يبلغَ إسماعيل أنْ يساعد أباه فى بناية البيت ، إذن : هذا دليل على أن البيت كان موجوداً قبل إبراهيم .

(١) أى : أريناه أصله ليبنيه ، وكان قد درس بالطوفان وغيره ، فلما جاءت مدة إبراهيم عليه السلام أمره الله ببنيانه ، فجاء إلى موضعه وجعل يطلب أثراً ، فبعث الله ريحاً فكشفت عن أساس آدم عليه السلام ، فرتب قواعده عليه . [ تفسير القرطبى ٤٥٦٧/٦ ] .

وقد أوضح الحق ـ سبحانه وتعالى ـ هذه المسألة فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ (٩٦) ﴾ [آل عمران]

وحتى نتفق على فَهْم الآية نسأل : مَنْ هُم الناس ؟ الناس هم آدم وذريته إلى أن تقوم الساعة ، إذن : فآدم من الناس ، فلماذا لا يشمله عموم الآية ، فالبيت وُضِع للناس ، وآدم من الناس ، فلا بُدَّ أن يكون وُضِع لآدم أيضاً .

إذن : يمكنك القول بأن البيت وُضِع حتى قبل آدم ؛ لذلك نُصدِّق بالرأى الذى يقول : إن الملائكة هى التى وضعتْ البيت أولاً ، ثم طمسَ الطوفانُ معالم البيت ، فدلَّ الله إبراهيم بوحى منه على مكان البيت ، وأمره أنْ يرفعه من جديد فى هذا الوادى .

ويُقال : إن الله تعالى أرسل إلى إبراهيم سحابة دلَّتْه على المكان ونطقتْ : يا إبراهيم خُذْ على قدرى ، أى : البناء[1] .

ولو تدبرتَ معنى : ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ .. (١٢٧) ﴾ [البقرة] الرَّفْع يعنى : الارتفاع ، وهو البعد الثالث ، فكأن القواعد كان لها طُول وعَرْض موجود فعلاً ، وعلى إبراهيم أنْ يرفعها .

لكن لماذا بوأ الله لإبراهيم مكان البيت ؟

لما أسكن إبراهيم ذريته عند البيت قال : ﴿ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ .. (٣٧) ﴾ [إبراهيم] كأن المسألة من بدايتها مسألة عبادة وإقامة للصلاة ،

---

(١) أخرج الديلمى عن على عن النبى ﷺ فى قوله : ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ .. (١٢٧) ﴾ [البقرة] قال : « جاءت سحابة على تربيع البيت ، لها رأس تتكلم : ارتفاع البيت على تربيعى ، فرفعاه على تربيعها » [ أورده السيوطى فى الدر المنثور ٣٠٧/١ ] .

الصلاة للإله الحق والربِّ الصِّدْق ؛ لذلك أمره أولاً : ﴿أَن لاَّ تُشْرِكْ بِى شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (٢٦)﴾ [الحج] والمراد : طَهِّر هذا المكان من كل ما يُشعِر بالشرك ، فهذه هى البداية الصحيحة لإقامة بيت الله .

وهل كان يُعقل أنْ يدخل إبراهيم ـ عليه السلام ـ فى الشرك ؟ بالطبع لا ، وما أبعدَ إبراهيمَ عن الشرك ، لكن حين يُرسل الله رسولاً ، فإنه أول مَنْ يتلقَّى عن الله الأوامر ليُبلِّغ أمته ، فهو أول مَنْ يتلقى ، وأول مَنْ يُنفذ ليكون قدوةً لقومه فيُصدِّقوه ويثقوا به ؛ لأنه أمرهم بأمر هو ليس بنَجْوة عنه .

ألا ترى قوله تعالى لنبيه محمد ﷺ : ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ .. (١)﴾ [الأحزاب] وهل خرج محمد ﷺ عن تقوى الله ؟ إنما الأمر للأمة فى شخص رسولها ، حتى يسهُلَ علينا الأمر حين يأمرنا ربنا بتقواه ، ولا نرى غضاضةً فى هذا الأمر الذى سبقنا إليه رسول الله ؛ لأنك تلحظ أن البعض يأنف أن تقول له : يا فلان اتق الله ، وربما اعتبرها إهانة واتهاماً ، وظن أنها لا تُقال إلا لمَنْ بدر منه ما يخالف التقوى .

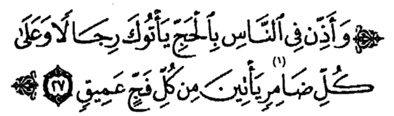
وهذا فَهْم خاطىء للأمر بالتقوى ، فحين أقول لك : اتق الله . لا يعنى أننى أنفى عنك التقوى ، إنما أُذكِّرك أنْ تبدأ حركة حياتك بتقوى الله .

إذن : قوله تعالى لإبراهيم عليه السلام : ﴿أَن لاَّ تُشْرِكْ بِى شَيْئًا .. (٢٦)﴾ [الحج] لا تعنى تصوُّر حدوث الشرك من إبراهيم ، وقال ﴿شَيْئًا .. (٢٦)﴾ [الحج] ليشمل النهىُ كُلَّ ألوان الشرك ، أياً كانت صورته : شجر ، أو حجر ، أو وثن ، أو نجوم ، أو كواكب .

ويؤكد هذا المعنى بقوله : ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ .. (٢٦)﴾ [الحج] والتطهير يعنى : الطهارة المعنوية بإزالة أسباب الشرك ، وإخلاص العبادة لله وحده لا شريكَ له ، وطهارة حسِّية ممَّا أصابه بمرور الزمن وحدوث الطوفان ، فقد يكون به شىء من القاذورات مثلاً .

ومعنى ﴿لِلطَّائِفِينَ .. (٢٦)﴾ [الحج] الذين يطوفون بالبيت : ﴿وَالْقَائِمِينَ .. (٢٦)﴾ [الحج] المقيمين المعتكفين فيه للعبادة ﴿وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (٢٦)﴾ [الحج] الذين يذهبون إليه فى أوقات الصلوات لأداء الصلاة ، عبَّر عن الصلاة بالركوع والسجود ؛ لأنهما أظهر أعمال الصلاة .

ثم يقول الحق سبحانه :




أمر الله نبيه إبراهيم بعد أنْ رفع القواعد من البيت أنْ يُؤذِّن فى الناس بالحج ، لماذا ؟ لأن البيت بيت الله ، والخَلْق جميعاً خَلْق الله ، فلماذا تقتصر رؤية البيت على مَنْ قُدِّر له أنْ يمرَّ به ، أو يعيش إلى جواره ؟

فأراد الحق - سبحانه وتعالى - أنْ يُشيع هذه الميْزة بين خَلْقه جميعاً ، فيذهبوا لرؤية بيت ربهم ، وإنْ كانت المساجد كلها بيوت

(١) الضامر : لطيف الجسم قليل اللحم . ومن عادة العرب أن يُضمِّروا الخيل لتكون أقوى وانشط وأسرع . وقوله تعالى : ﴿وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ .. (٢٧)﴾ [الحج] . أى : حصان ضامر متعود على السفر البعيد بنشاط وقوة . [ القاموس القويم ١/٣٩٥ ] .

الله ، إلا أن هذا البيت بالذات هو بيت الله باختيار الله ؛ لذلك جعله قبْلة لبيوته التى اختارها الخلْق .

إن من علامات الولاء بين الناس أنْ نزور قصور العظماء وعلْية القوم ، ثم يُسجل الزائر اسمه فى سجلٍّ الزيارات ، ويرى فى ذلك شرفاً ورفْعة ، فما بالك ببيت الله ، كيف تقتصر زيارته ورؤيته على أهله والمجاورين له أو مَنْ قُدِّر لهم المرور به ؟

ومعنى ﴿أَذِّن .. ㉗﴾ [الحج] الأذان : العلم ، وأول وسائل العلم السماع بالأذن ، ومن الأذن أُخذ الأذان . أى : الإعلام . ومن هذه المادة قوله تعالى : ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ .. ⑦﴾ [إبراهيم] أى : أعلم ؛ لأن الأذن وسيلة السماع الأولى ، والخطاب المبدئى الذى نتعلَّم به ؛ لذلك قبل أنْ تتكلَّم لا بُدَّ أنْ تسمع .

وحينما أمر الله إبراهيم بالأذان لم يكُنْ حول البيت غير إبراهيم وولده وزوجته ، فلمَنْ يُؤذِّن ؟ ومَنْ سيستمع فى صحراء واسعة شاسعة وواد غير مسكون ؟ فناداه ربه : « يا إبراهيم عليك الأذان وعلينا البلاغ »[1] .

مهمتك أنْ ترفَع صوتك بالأذان ، وعلينا إيصال هذا النداء إلى كل الناس ، فى كل الزمان ، وفى كل المكان ، سيسمعه البشر جميعاً ،

---

(١) عن ابن عباس قال : لما فرغ إبراهيم من بناء البيت قال : رب ، قد فرغت . فقال : ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ .. ㉗﴾ [الحج] . قال : رب ، وما يبلغ صوتى ؟ قال : أذِّن وعلىَّ البلاغ . قال : رب ، كيف أقول ؟ قال : يا أيها الناس ، كتب عليكم الحج إلى البيت العتيق . فسمعه من بين السماء والأرض ، ألا ترى أنهم يجيئون من أقصى الأرض يلبون ؟ » أورده السيوطى فى الدر المنثور ( ٣٢/٦ ) وعزاه لابن أبى شيبة فى المصنف وابن جرير وابن أبى حاتم والحاكم وصححه والبيهقى فى سننه .

وهم فى عالم الذَّرِّ وفــى أصلاب آبائهم[1] بقدرة الله تعـالى الذى قال لنبيه محمد ﷺ : ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ..(١٧)﴾ [الأنفال]

يعنى : أَدِّ مـا عليك ، واترك مـا فوق قـدرتك لقدرة ربك . فـأذَّنَ إبراهيم فى الناس بالحج ، ووصل النداء إلى البشر جميعاً ، وإلى أن تقوم السـاعة ، فَمَنْ أجـاب ولَبَّى : لبيك اللهم لبـيك كُتبَتْ له حَـجَّة ، حتى إن من العلمـاء من قال[2] : مَنْ لبَّى مرة كُـتبَتْ له حـجة ، ومَنْ لبَّى مرتين كتـبت له حجَّتيْن وهكذا ، لأن معنى لبـيك : إجابةٌ لك بعد إجابة .

فإنْ قُلْتَ : إن مطالب الله وأوامره كثيرة ، فلماذا أخذ الحج بالذات هذه المكانة ؟ نقول : أركـان الإسلام تبدأ بالشـهادتين : لا إله إلا الله محـمد رسـول الله ، ثم الصلاة ، ثم الزكاة ، ثم الـصوم ، ثم الحج ، لو نظرتَ إلى هذه الأركـان لوجدتَ أن الـحج هو الركن الوحيـد الذى يجتهد المسلم فى أدائه وإنْ لم يكُن مستطيـعاً له فتراه يوفر ويقتصد حتى من قُوته ، وربمـا حرمَ نفسه ليُؤدِّى فـريضة الحج ، ولا يحدث هذا ولا يتكلفه الإنسان إلا فى هذه الفريضة ، لماذا ؟

قالوا : لأن الله تعالى حكم فى هذه المسألة فقال : أَذِّن ـ يأتُوكَ ، هكذا رَغْـماً عنهم ، ودون اخـتيـارهم ، ألاَ ترى الناس ينجـذبون لأداء هذه الفريضة ، وكأن قوة خارجة عنهم تجذبهم .

---

(١) عن ابن عباس فى قوله ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ .. (٢٧)﴾ [الحج] . قال : قـام إبراهيم عليه السـلام على الحجـر فنادى : يا أيها الناس ، كـتب عليكم الحج ، فـاسمع من فى أصـلاب الرجال وأرحام النسـاء ، فأجاب من آمن ممن سبق فى علم الله أن يحج إلى يوم القـيامة : لبيك اللهم لبيك . أورده السيوطى فى الدر المنثور ( ٣٣/٦ ) وعزاه لابن جرير الطبرى .

(٢) أخرجه الديلمى فى « الفـردوس بمأثور الخطاب » ( رقم ٥٣٠٣ ) عن على بن أبى طالب ، قال السيوطى فى الدر المنثور ( ٣٣/٦ ) : « أخـرجه الديلمى بسند واهٍ عن علىّ رفعه » . وقال الفتنى فى تذكرة الـموضوعات ( ص ٧٣ ) : « الحديث من نسخةِ مـحمد بن الأشعث التى عامة أحاديثها مناكير » .

وهذا معنى قوله تعالى : ﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ .. (٣٧)﴾ [إبراهيم] ومعنى تهوى : تأتى دون اختيار من الهُوِىِّ أى : السقوط ، وهو أمر لا يملكه الإنسان ، كالذى يسقط من مكان عالٍ ، فليس له اختيار فى ألاَّ يسقط .

وهكذا تحنُّ القلوب إلى بيت الله ، وتتحرَّق شَوْقاً إليه ، وكأن شيئاً يجذبها لأداء هذه الفريضة ؛ لأن الله تعالى أمر بهذه الفريضة ، وحكم فيها بقوله ﴿يَأْتُوكَ .. (٢٧)﴾ [الحج] أما فى الأمور الأخرى فقد أمر بها وتركها لاختيار المكلف ، يطيع أو يعصى ، إذن : هذه المسألة قضية صادقة بنصٍّ القرآن .

وبعض أهل الفَهْم يقولون : إن الأمر فى : ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ .. (٢٧)﴾ [الحج] ليس لإبراهيم ، وإنما لمحمد ﷺ ـ الذى نزل عليه القرآن ، وخاطبه بهذه الآية ، فالمعنى ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ .. (٢٦)﴾ [الحج] يعنى : اذكر يا مَنْ أُنْزل عليه كتابى إذْ بوأنا لإبراهيم مكان البيت ، اذكر هذه القضية ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ .. (٢٧)﴾ [الحج] فكأن الأمر هنا لمحمد ﷺ[1] .

لذلك لا نشاهد هذا النسك فى الأمم الأخرى كاليهود والنصارى ، فهم لا يحجون ولا يذهبون إلى بيت الله أبداً ، وقد ثبت أن موسى ـ عليه السلام ـ حج بيت الله[2] ، لكن لم يثبت أن عيسى عليه السلام

---

(١) قال القرطبي فى تفسيره ( ٦ / ٤٥٦٩ ) : « قيل : إن الخطاب لإبراهيم عليه السلام تم عند قوله ﴿وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (٢٦)﴾ [الحج] ثم خاطب الله عز وجل محمداً ﷺ فقال : ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ .. (٢٧)﴾ [الحج] أى : أعلمهم أن عليهم الحج » .

(٢) عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ مر بوادى الأزرق فقال : أى واد هذا ؟ فقالوا : هذا وادى الأزرق . قال : كأنى أنظر إلى موسى عليه السلام هابطاً من الثنية وله جؤار إلى الله بالتلبية ، ثم أتى على ثنية هرشى ، فقال : أى ثنية هذه ؟ قالوا : ثنية هرشى : قال : كأنى أنظر إلى يونس بن متى عليه السلام على ناقة حمراء جعدة عليه جبة من صوف ، خطام ناقته خُلْبة ، وهو يُلَبِّى » أخرجه مسلم فى صحيحه ( ١٦٦ ) ، وأحمد فى مسنده ( ١ / ٢١٥ ) .

حَجٍّ ، بدليل أن رسـول الله ﷺ قـال « يُوشك أنْ ينزل ابـن مـريم ، ويأتى حاجاً ، ويزور قبرى ، ويُدفن هناك »[1] .

فقـال رسول الله : « ويأتى حاجـاً » لأنه لم يمت ، وسوف يدرك عهد التكليـف من رسول الله حين ينزل من السماء ، وسـيصلى خلف إمام من أمة محمد صلى الله على جميع أنبيائه الله ورُسُله .

ومن المسائل التى نحتجُّ بها عليهم قولهم : إن الذبيح إسحق ، فلو أن الذبيح إسحق كما يدَّعُون لكانت مناسك الذبح والفداء ورَمْى الجمار عندكم فى الشام ، أمّا هذه المناسك فهى هنا فى مكة ، حيث كان إسماعيل .

ثم تذكَّروا جيداً ما قاله كتابكم المقدس[2] فى الأصحاح ٢٣ ، ٢٤

---

(١) أورد القرطبى فى التذكرة ( ص ٧٧٣ ) طبعة مكتبة دار التـراث من حديث كثير بن عبد الله عن أبيه عن جده قال : غزونا مع النبى ﷺ الحديث ، وفيه : « لا تقوم الساعة حتى ينزل عيسى بن مريم عبد الله ورسوله حاجاً أو معـتمراً أو ليجمعن الله ذلك له » وقال محمـد بن كعب القرظى : أن رجلاً قال : إنى أشهد أنه لمكتوب فى التـوراة والإنجيل أنه يمر بالروحاء حاجاً أو معـتمراً أو يجمع الله له ذلك ، فيجعل الله حواريّه أصحاب الكهف والرقيم ، فيمرون حجاجاً فإنهم لم يحجوا ولم يموتوا » .

أما دفن المسيح عليه السلام فقد ذكر القرطبى فى التذكرة ( ص ٧٦٢ ) عن عبد الله بن عمرو عن رسول الله ﷺ : « ويمكث خمـساً وأربعين سنة ويدفن معى فى قبرى فـأقوم أنا وعيسى من قبر واحد بين أبى بكر وعمر » ذكره الميانشى أبو حفص .

وعن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : « يمكث عيـسى فى الأرض بعدما ينزل أربعين سنة ، ثم يموت ويصلى عليه المسلمون ويدفنونه » ذكره أبو داود الطيالسى فى مسنده .

(٢) تحقيق هذه المـسألة أن إبراهيم عليه السلام كـان عمره ٨٦ سنة عندما وُلد له إسـماعيل ، وذلك بنص الكتـاب المقـدس « كان أبرام ابن ست وثمـانين سنة لمـا ولدت هاجر إسـماعـيل لأبرام » [ التكوين ١٦ : ١٦ ] . أما عـمره عندما وُلد له إسـحاق ، فكان عمـره ١٠٠ سنة ، بنص الكتاب : « وكان إبراهيم ابن مئـة سنة حين ولد له إسحاق ابنه » [ تكوين ٢١ : ٥ ] أى أن عمـر إسماعيل كان ١٤ سنة حينما ولد أخوه إسحاق ، فكيف يكون وحيده هو إسحاق؟

وهاجر زوجة لإبراهيـم بنص التوراة « فأخذت سارای امـرأة أبرام هاجر المصرية جـاريتها من بعد عـشر سنين لإقامـة أبرام فى أرض كنعان وأعطتـها لأبرام رجلها زوجـة له . فدخل على هاجر فحبلت » [ تكوين : ٣:١٦ ، ٤ ] .

فكيف يقولون بعد هذا : « وحـدث بعد هذه الأمور أن الله امتحن إبراهـيم فقال له يا إبراهيم . فقال هاأنذا . فقـال : خذ ابنك وحيدك الذى تحبه إسـحـاق واذهب إلى أرض المريّا وأصعده هناك محرقة على أحد الجبال الذى أقول لك » [ تكوين ٢٢ : ٢ ] وانظر [ تكوين ٢٢ : ٩ - ١٦ ] .

من أن الحق ـ سبحانه وتعالى ـ أوحى إلى إبراهيم أن يصعد على جبل فاران ، ويأخذ ولده الوحيد ويذبحه ، فالوحيد إسماعيل لا إسحق ؛ لأن الله فدى إسماعيل ، ثم بشّر إبراهيم بإسحق .

ومن حكمة الله ـ عز وجل ـ أنْ جعل فى كذب الكاذب مَنْفَذاً للحق ، وثغرات نصل منها إلى الحقيقة ؛ لذلك يقول رجال القضاء : ليست هناك جريمة كاملة أبداً ، لا بُدَّ أنْ يترك المجرم قرينة تدلُّ عليه مهما احتاط لجريمته ، كأن يسقط منه شيء ولو أزرار من ملابسه ، أو ورقة صغيرة بها رقم تليفون .. إلخ ، لذلك نقول : الجريمة لا تفيد ؛ لأن المجرم سيقع لا محالة فى يد مَنْ يقتصُّ منه .

ولرجال القضاء ووكلاء النيابة مقدرة كبيرة على استخلاص الحقيقة من أفواه المجرمين أنفسهم ، فيظل القاضى يحاوره إلى أنْ يجد فى كلامه ثغرةً أو تضارباً يصل منه إلى الحقيقة .

ذلك لأن للصدق وجهاً واحداً لا يمكن أنْ يتلجلج صاحبه أو يتردد ، أمّا الكذب فله أكثر من وجه ، والكاذب نفسه لو حاورتَهُ أكثر من مرة لوجدتَ تغييراً وتضارباً فى كلامه ؛ لذلك العرب يقولون : إنْ كنتَ كذوباً فكُنْ ذَكُوراً . يعنى : تذكَّر ما قُلْته أولاً ، حتى لا تُغيِّره بعد ذلك .

ومن أمثلة الكذب الذى يفضح صاحبه قَوْلُ أحدهم للآخر : هل تذكر يوم كنا فى مكان كذا ليلة العيد الصغير ، وكان القمر ظهراً !! فقال : كيف ، يكون القمر مثل الظهر فى آخر الشهر ؟

وقد يلجأ القاضى إلى بعض الحِيَل ، ولا بُدَّ أنْ يستخدم ذكاءه لاستجلاء وجه الحق ، كالقاضى الذى احتكم إليه رجلان يتهم أحدهما الآخر بأنه أخذ ماله أمانة ، ثم أخذها لنفسه ودفنها فى موضع كذا

وكذا ، فلما حاور القاضى المتهم أنكر فانصرف عنه ، وتوجَّه إلى صاحب الأمانة ، وقال له : اذهب إلى هذا المكان ، وابحثْ لعلَّك تكون قد نسيتَه هنا أو هناك .

أو لعلّ آخر أخذه منك ، فذهب صاحب المال ، وفجأة سأل القاضى المتهم : لماذا تأخر فلان طوالَ هذا الوقت ؟ فردَّ المتهم : لأن المكان بعيدٌ يا سيادة القاضى . فخانتْه ذاكرته ، ونطق بالحق دون أن يشعر .

ثم يقول تعالى : ﴿ يَأْتُوكَ رِجَالاً .. (٢٧) ﴾ [الحج] ورجالاً هنا ليست جَمْعاً لرجل ، إنما جمع لراجل ، وهو الذى يسير على رِجْلَيْه ﴿ وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ .. (٢٧) ﴾ [الحج] الضامر : الفَرَس أو البعير المهزول من طول السفر .

وتقديم الماشين على الراكبين تأكيد للحكم الإلهى ﴿ يَأْتُوكَ .. (٢٧) ﴾ [الحج] فالجميع حريص على أداء الفريضة حتى إنْ حَجَّ ماشياً .

وقوله : ﴿ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (٢٧) ﴾ [الحج] أى : من كل طريق واسع ﴿ عَمِيقٍ (٢٧) ﴾ [الحج] يعنى : بعيد .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ۖ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ (٢٨) ﴾

كلمة ﴿ مَنَافِعَ .. (٢٨) ﴾ [الحج] كلمة عامة واسعة تشمل كل أنواع النفع : مادية دنيوية ، أو دينية أُخروية ، ولا ينبغى أنْ نُضيِّق

ما وسَّعه الله ، فكلُّ ما يتصل بالحج من حركات الحياة يُعَد من المنافع ، فاستعدادك للحج ، وتدبير نفقاته وأدواته وراحلته فيها منافع لك ولغيرك حين توفر لأهلك ما يكفيهم حتى تعود .

ما يتم من حركة بيع وشراء فى مناطق الحج ، كلها منافع متبادلة بين الناس ، التاجر الذى يبيع لك ، وصاحب البيت الذى يُؤجِّره لك ، وصاحب السيارة التى تنقلك .

إذن : المنافع المادية فى الحج كثيرة ومتشابكة ، متداخلة مع المنافع الدينية الأخروية ، فحين تشترى الهَدْى[1] مثلاً تؤدى نُسُكاً وتنفع التاجر الذى باع لك ، والمربِّى الذى ربَّى هذا الهَدْى ، والجزار الذى ذبحه ، والفقير الذى أكل منه .

إذن : لا يتم الحج إلا بحركة حياة واسعة ، فيها نَفْع لك وللناس من حيث لا تدرى ، ولك أنْ تنظرَ فى الهدايا التى يجلبها الحجاج معهم لأهليهم وذويهم ، خاصة المصريين منهم ، فترى بعضهم ينشغل بجَمْع هذه الأشياء قبل أنْ يُؤدِّى نُسُكه ويقضى معظم وقته فى الأسواق ، وكأنه لن يكون حاجاً إلا إذا عاد مُحمَّلاً بهذه الهدايا .

لذلك كان يأتى إلينا بعض هؤلاء يسألون : أنا علىَّ دَم مُتْعة[2]

---

(١) الهَدْى : الذبيحة تُهْدى إلى الحرم فى الحج [ القاموس القويم ٢/٣٠١ ] وهو مستحب للحاج المفرد ، والمعتمر المفرد . وواجب على القارن والمتمتع ، وكذلك على من ترك واجباً من واجبات الحج كرمى الجمار أو طواف الوداع . وكذلك واجب على من ارتكب محظوراً من محظورات الإحرام ، غير الوطء ، كالتطيب والحلق . [ انظر تفصيل هذا وشروط الهدى فى كتاب فقه السنة للشيخ سيد سابق ١/٥٣١ ] .

(٢) التمتع : هو الاعتمار فى أشهر الحج ، ثم يحج من عامه الذى اعتمر فيه ، وسمى تمتعاً للانتفاع بأداء النسكين فى أشهر الحج فى عام واحد ، من غير أن يرجع إلى بلده . وصفة التمتع أنْ يُحرم من الميقات بالعمرة وحدها ، ويقول عند التلبية « لبيك بعمرة » ويؤدى مناسك العمرة ، ثم يتحلل من إحرامه ويتمتع بكل ما كان مُحرماً عليه إلى أن يجىء يوم التروية ، فيحرم من مكة بالحج . وهذا يجب عليه الهَدْى [ فقه السنة ١/٤٦٥ ، ٤٦٦ ] .

وليس معى نقود ، فماذا أفعل ؟ يريد أن يصوم . صحيح : كيف سيؤدى ما عليه وقد أنفق كُلَّ ما معه ؟ فكنت أقول له : اعْطنى حقيبة سفرك ، وسأبيع ما بها ، ولن أُبقى لك إلا ما يكفيك من نفقات حتى تعود .

أليست هذه كلها من المنافع ؟

ومن منافع الحج أن الحاجَّ منذ أنْ ينوى أداء هذه الفريضة ويُعد نفسه لها إعداداً مادياً ، وإعداداً نفسياً معنوياً ، فيحاول أنْ يُعيد حساباته من جديد ، ويُصلح من نفسه ما كان فاسداً ، وينتهى عَمَّا كان يقع فيه من معصية الله ، ويُصلح ما بينه وبين الناس ، إذن : يجرى عملية صَقْل خاصة تُحوِّله إلى إنسان جديد يليق بهذا الموقف العظيم ، ويكون أهْلاً لرؤية بيت الله والطواف به .

ومن الإعداد للحج أنْ يتعلَّم الحاجُّ ما له وما عليه ، ويتأدب بآداب الحج فيعرف محظوراته وما يحرُم عليه ، وأنه سوف يتنازل عن هنْدامه وملابسه التى يزهو بها ، ومكانته التى يفتخر بها بين الناس ، وكيف أن الإحرام يُسوِّى بين الجميع .

يتعلم كيف يتأدَّب مع نفسه ، ومع كل أجناس الكون من حوله[1] ، مع نفسه فلا يُفكِّر فى معصية ، ولا تمتدَّ يده حتى على شعرة من شعره ، أو ظُفْر من أظافره ولا يقْربُ طيباً ، ولا حتى صابونة لها رائحة .

والعجيب أن الحاج ساعة يدخل فى الإحرام يحرص كل الحرص

---

(١) يقصد صيد المحرم بالحج أو العمرة ، يقول تعالى : ﴿يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ .. ﴿٩٥﴾﴾ [المائدة] ، ويقول أيضاً : ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا .. ﴿٩٦﴾﴾ [المائدة] .

على هذه الأحكام ، وأتحدى أىَّ إنسـان ينوى الحج ويأخذ فى الإحرام به ، ثم يفكر فى معصية ؛ لأنه يُعدُّ نفسـه لمرحلة جديدة يتطهر فيها من الذنوب ، فكيف يـكتسب الـمزيد منـها وقـد أتى من بلاد بعـيـدة ليتطهر منها ؟

وفى الحجِّ يتأدب الحاج مع الحيوان ، فلا يصيده ولا يقتله ، ومع النبات فـلا يقطع شجراً . يـتأدب حتى مع الجـماد الذى يعتـبره أدْنى أجناس الكون ، فـيحرص على تـقبيل الحـجر الأسـود ، ويجتـهد فى الوصول إليه ، فإنْ لم يستطع أشار إليه بيده .

إن الحج التزام وانضباط يفوق أىَّ انضـباط يعرفه أهل الدنيا فى حـركـة حـياتـهم ، ففـى الحج ترى هذا الإنسـان السـيـد الأعلى لكل المـخلوقـات كَمْ هو منكسـر خاضع مـهـما كـانت منزلتـه ، وكم هى طمأنينة النفس البـشرية حين تُقبِّل حـجراً وهى راضية خـاضعة ، بل ويحزن الإنسان إذا لم يتمكن من تقبيل الحجر .

ثم يقـول الحق سـبـحـانه وتعـالى : ﴿وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ.. (٢٨)﴾ [الحج]

يذكـروا اسم الله ؛ لأن كل أعـمـال الـحج مـصـحـوبة بذكـر الله وتلبـيته ، فَـمَا من عـمل يُؤدِّيه الحاجّ إلا ويقـول : لبيك اللهم لـبيك . وتظل التلبية شاغله ودَيْدنه إلى أنْ يرمى جمرة العقبة ، ومعنى « لبيك اللهم لبـيك » أن مشـاغل الدنيا تطـلبنى ، وأنت طلبتنى لأداء فَـرْضك علىَّ ، فـأنا أُلبِّـيك أنت أولاً ؛ لأنـك خالـقى وخـالق كل مـا يشـغلنى ويأخذنى منك .

والأيام المعلومات هى : أيام التشريق[1] .

ومعنى : ﴿عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنْ بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ .. (٢٨)﴾ [الحج] أى : يشكروا الله على هذا الرزق الوقتى الذى يأكلون منه ويشربون ، ويبيعون ويشترون فى أوقات الحج . أو يشكرون الله على أنْ خلقَ لهم هذه الأنعام ، وإنْ لم يحجُّوا ، ففى خَلْق الأنعام - وهى الإبل والبقر والغنم والماعز - وتسخيرها للإنسان حكمة بالغة ، ففضلاً عن الانتفاع بلحمها وألبانها وأصوافها وأوبارها اذكروا الله واشكروه أنْ سخَّرها لكم ، فلولا تسخير الله لها لَمَا استطعتُم أنْ تنتفعوا بها ، فالجمل مثلاً هذا الحيوان الضخم يقوده الطفل الصغير ، ويُنيخه ويحمله فى حين لم يستطع الإنسان تسخير الثعبان مثلاً أو الذئب .

لذلك يقول تعالى : ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ (٧١) وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ .. (٧٢)﴾ [يس]

لذلك نذكر الله ونشكره على ما رزقنا من بهيمة الأنعام استمتاعاً بها أكْلاً ، أو استمتاعاً بها بَيْعاً أو زينة ، كما قال تعالى : ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ (٦)﴾ [النحل]

---

(١) ذكر ابن كثير فى تفسيره ( ٢١٧/٣ ) أربعة أقوال فى تأويل الأيام المعلومات :
- أيام العشر الأُوَل من شهر ذى الحجة . قاله ابن عباس وأبو موسى الأشعرى ومجاهد وغيرهم وهو مذهب الشافعى والمشهور عن أحمد بن حنبل .
- يوم النحر وثلاثة أيام بعده . وهو أيام ١٠ ، ١١ ، ١٢ ، ١٣ من شهر ذى الحجة وهى المسماة بأيام التشريق . قاله ابن عباس وابن عمر وإليه ذهب أحمد بن حنبل فى رواية عنه .
- يوم النحر ويومان بعده . قاله ابن عمر والسدى وهو مذهب مالك .
- يوم عرفة ويوم النحر وأيام التشريق . قاله زيد بن أسلم أى أيام ٩ ، ١٠ ، ١١ ، ١٢ ، ١٣ من شهر ذى الحجة .

ولولا أن الله تعالى ذَلَّلها لخدمتك ما استطعْتَ أنت تذليلها والانتفاع بها ؛ لذلك من حكمة الله أنْ يترك بعض خَلْقه غير مُسْتأنس ، ولا يمكن لك بحال أن تستأنسه أو تُذلّله لتظل على ذكْر لهذه النعمة ، وتشكر الله عليها .

وسبق أن ضربنا مثلاً بالبرغوث ، وهو من أدْنى هذه المخلوقات ، ولا تكاد تراه ، ومع ذلك لا تقدر عليه ، وربما أقضَّ مَضْجعك ، وأقلق نومك طوال الليل . وتلمس هذه النعمة فى الجمل الذى يقوده الصبى الصغير ، إذا حرن[1] منك فلا تستطيع أن تجعله يسير رغماً عنه ، أو صَالَ فلا يقدر عليه أحد ، وقد يقتل صاحبه ويبطش بمَنْ حوله .

إذن : لا قدرة لك عليه بذاتك ، إنما بتذليل الله يمكن الانتفاع به ، فتسوقه إلى نَحْره ، فيقف ساكناً مُسْتسلماً لك .

والمتأمل فى حال الحيوانات التى أحلها الله لنا يجد أمرها عجيباً ، فالحيوان الذى أحلَّه الله لك تظل تنتفع به طوال عمره ، فإذا ما تعرّض لما يُزهق روحه ، ماذا يفعل ؟ يرفع رأسه إلى أعلى ، ويعطيك مكان ذَبْحه ، وكأنه يقول لك : أنا فى اللحظات الأخيرة فاجتهد فى أنْ تنتفع بلحمى ، وأهل الريف إذا شاهدوا مثل هذه الحالة يقولون : طلب الحلال يعنى الذبح . أما الحيوان الذى لا يُذبح ولا يُحله الله فيموت مُنكّس الرأس ؛ لأنه لا فائدة منه .

هذا الحيوان الذى نتهمه بالغباء ونقول أنه بهيم .. الخ لو فكرتَ

---

(١) حرنت الناقة : قامت فلم تبرح . [ أى : رفضت السير ] . لا تنقاد ، إذا استُدر [ طُلب منها ] جريها وقفت . [ لسان العرب - مادة : حرن ] .

فيه لَتغيَّر رأيك ، فالحمار الذى نتخذه رَمْزاً للغباء وعدم الفَهْم تسوقه أمامك وتُحمِّله القاذورات وتضربه فلا يعترض عليك ولا يخالفك ، فإنْ نظفْته وزيَّنْتَه بلجام فضة ، وبردعة قطيفة تتخذه رُكُوبة وزينة ويسير بك ويحملُك ، وأنت على ظهره ، فإنْ غضبتَ عليه واستخدمْته فى الأحمال وفى القاذورات تحمَّل راضياً مطيعاً .

وانظر إلى هذا الحمار الذى نتخذه مثالاً للغباء ، إذا أردتَ منه أن يقفز قناة أوسع من مقدرته وإمكانياته ، فإنه يتراجع ، ومهما ضربتَه وقسوْتَ عليه لا يُقدِم عليها أبداً ؛ لأنه يعلم مدى قفزته ، ويعلم مقدرته ، ولا يُقدِم على شيء فوق ما يطيق ـ وبعد ذلك نقول عنه : حمار !!

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿فَكُلُوا[1] مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ (٢٨)﴾ [الحج]

البائس : هو الذى يبدو على سحْنته وشكله وزيِّه أنه فقير محتاج ، أما الفقير فهو محتاج الباطن ، وإنْ كانَ ظاهره اليُسْر والغنَى ، وهؤلاء الفقراء لا يلتفت الناس إليهم ، وربما لا يعلمون حالهم وحاجتهم ، وقد قال الله فيهم : ﴿يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا .. (٢٧٣)﴾ [البقرة]

والمعنى : كُلُوا مما يُبَاح لكم الأكل منه ، وهى الصدقة المحضة ، أو الهدية للبيت غير المشروطة بشيء ، يعنى : لا هى دم قِرَان أو

---

(١) قال أبو بكر الجصاص ( ت ٣٧٠ هـ ) فى كتابه « أحكام القرآن » ط . دار الكتب العلمية ( ٣٠٧/٣ ) : « ظاهره يقتضى إيجاب الأكل ، إلا أن السلف متفقون على أن الأكل منها ليس على الوجوب ، وقد رُوى عن عطاء والحسن وإبراهيم ومجاهد قالوا : « إن شاء أكل ، وإن شاء لم يأكل » .

تمتُّع ، ولا هي فدية لمخالفة أمر من أمور الإحرام ، أو كانت نذراً فهذه كلها لا يؤكَل منها[1] .

إذن : كلوا من الصدقة والتطوع ، وأطعموا كذلك البائس والفقير ، ومن رحمة الله بالفقراء أنْ جعل الأغنياء والمياسير هم الذين يبحثون عن الذبائح ويشترونها ويذهبون لمكان الذبح ويتحمَّلون مشقة هذا كله ، ثم يبحثون عن الفقير ليعطوه وهو جالس فى مكانه مستريحاً ، يأتيه رِزْقه من فَضْل الله سهلاً مُيسَّراً .

لذلك يقولون : من شرف الفقير أنْ جعله الله ركناً من أركان إسلام الغنيّ ، أى : فى فريضة الزكاة ، ولم يجعل الغنى ركناً من أركان إسلام الفقير .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ[2] وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾ ﴾

---

(١) قال الجصاص فى « أحكام القرآن » ( ٣/ ٣٠٧ ) : « الناس فى دم القران والمتعة على قولين : منهم مَنْ لا يجيز الأكل منه . ومنهم من يبيح الأكل منه ولا يوجبه » وقال الشافعى فى كتاب الأم ( ٢/٢٤٠ ) : « الهدى هديان : واجب وتطوع ، فكل ما كان أصله واجباً على إنسان ليس له حبسه ، فلا يأكل منه شيئاً وذلك مثل : هدى الفساد والطيب وجزاء الصيد والنذور والمتعة ، وإن أكل من الهدى الواجب تصدق بقيمة ما أكل منه . وكل ما كان أصله تطوعاً مثل الضحايا والهدايا تطوعاً أكل منه وأطعم وأهدى وادخر وتصدق ، وأحبّ إلىّ أن لا يأكل ولا يحبس إلا ثلثاً ويهدى ثلثاً ويتصدق بثلث » .

(٢) قال الزجاج : لا يعرف أهل اللغة التفث إلا من التفسير . وقال أبو عبيدة : لم يجىء فيه شعر يحتج به . وقال ابن الأعرابى : ﴿ ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ .. ﴿٢٩﴾ ﴾ [الحج] . قال : قضاء حوائجهم من الحلق والتنظيف . [ لسان العرب - مادة : تفث ] .

٥٠

طبعت بمطابع دار اخبار اليوم

NC
7.122
7
3115t
122
991
0547867